JÁN JOHANIDES



عقاب الجريمة

ترجمة د. غياث الموصلي

GIFTS 2008

LIC - Centre for Information on Literature

Slovakia

GIFTS 2008

Literature Across Frontiers Programme

United Kingdom

يان يوهانيدس
Jan Johanides

عقاب الجريمة

عن السلوفاكيَّة

ترجمة
الدكتور غياث الموصلي
Dr.Mousli Ghias

عقاب الجريمة
المؤلف السلوفاكي :يان يوهانيدس
ترجمة الدكتور غياث الموصلي
حمص .سوريا ص.ب. ١١٣٣
E-mail :mousli١@scs-net.org
الطبعة الأولى

عدد النسخ ٨٠٠ نسخة
-صدر في حمص في النصف الأول من عام ٢٠٠٢
Trestajuci zlocin : الأصل السلوفاكي

The book has received a subsidy from the Information Center for Slovak Literature in Bratislava

مقدمة المترجم:

تعتبر رواية الكاتب السلوفاكي الشهير يان يوهانيدس عقاب الجريمة , إحدى أروع كتاباته في القصـــــة , والأدب , حيث ظهر كأديب يتمتع بغـــنى كبـــير , وخيال يتطابق مع الحوادث الواقعية , يتكلم نيابـــة عني , وعنك , وعن كل إنسان مظلوم في مجتمعـــه , وبيئته .انه في البداية يتمتع بحس عميق للأشياء الـــتي عاشها . وعاشها الكثيرون في الأزمات الاجتماعيـة , ويحاول البحث أيضا عن سبب تلـــك الأزمـــات في الإنسان ,وفي المجتمع أيضا. ويدرس العلاقة المرضيـــة ,والغير مفهومة بين الإنسان, والمجتمع .انه يتذكـــــر عامل الأرشيف الذي حوكم على جرم لم يقترفـــه في الخمسينيات,في زمن النظام التوليتـــاري الشـــيوعي ,حيث قضى زهرة شبابه في سجن فالديتسي القاسي الشهير في تشيكوسلوفاكيا السابقة,و هنـــاك أيضـــا

فقد صحته , ويعيش اليوم التغيرات العميقــــة الـــتي تجري في المجتمع بكثير من الحذر والتشاؤم .

إن كتابة يوهانيدس تجعل القارىء يعيش في توتر دائم من بداية الرواية إلى آخر كلمة فيها , وبالتالي تــراك تسأل نفسك , أليست هذه قصتي . وحكـــايتي .

وكما يقول بطل الرواية : إن كل ما عشته ,وكتبتــه ما هو إلا حادثة إحدى العائلات , وعائلتكم أيضـــا , ولا تظنوا بأنكم أفضل مني كونكم قد ولدتم بعــــدي بعدة أجيال.

تعودتُ طوال حياتي أن أتصرفَ في غايـــــة الأدب , والتهذيب,وخاصة حين أَطلبُ خدمة ما , أو حتى حــين أسألُ عن شيء ما , ولسانُ حالي : هل تسمحْ ؟ هـــل تسمحونْ ؟ كنت أسأل ,وأبدو , كما لو أنني أتحركُ عبر ممر ضيق في عربة قطار مزدحمٍ بالمسافرين , وبكــل أدب كان المسافرون يعترضون طريقي , ويدفعوني في الاتجــاه

المعاكس , وبذلك أعود إلى المكان الـــذي انطلقـــت منه,والذي تفوهت به لأول مرة بعبارة هل تسمحون لي ؟ولهذا فاني الآن أضحك .

هنا في هذا البرج,وفي مكان الهجوم الأخير, وباختصـــار في هذا (المكان) ,أريد أن أقول,وأنا أقفُ في منتصـــف ذلك القوس التاريخي المنحوت في السقف,وأمام تلـــك النوافذ الثلاثة الكبيرة من ذلك القصر القديم , وربما هنا في هذا المكان بالذات , وحيث نجلس الآن معا نحـن الاثنين , استيقظَ , ولمرات عديدة حارس القصـــر , وقام بواجبه .

في أحد الأيام,وعلى الأغلب في الخريف,وعـــادة في وقت متأخر من الليل ,حين أفتـــح النوافـــذ علـــى مصراعيها , وأُفرِّغ الغرفة من رائحة تبغي , ومـــن دخانه الكثيف , ومن جنون قصائدي التي عادة مـــا تهدأ في مطلع الفجر . أشعر بحضور حارس القصر .لَمْ

أسمع صوت وقع أقدامه على الأرض الخشـــبية , أو صوت ِ مقبض الباب عند فتحـــه. لســـتُ محـــامي الأرواح . إن وجود الحارس , ولا أقصد وجـــوده شخصياً – بل شيئا مشابها ربما حدث قبـــل أربعـــة قرون . وكما أن شيئاً مستمراً من حالة الاستعداد , و الطوارئ ما تزال تهيمنُ في هذا المكان . وتحـــت هذا القوس بالذات . لقد أمضى الليلة هنا شـــخصٌ كان له حضور أ, ومن ثم تراجع عن حضوره , ولهذا له يتمكن من خداع نفسه .

يجب عليَّ أن أعترفَ لكم –أعترفَ لكم بأن لا شيء أبغضهُ في الدنيا ,كما أبغض التراجع عن شيء أعيشه , وعن شيء عليَّ أن أعيشه .

هل تظنون بأن القدح الذي بين أيديكم يشبه قـــدح التناول أكثر من َشبهه بكأسِ الشراب؟ لا تصدقوا . إن هذا الإحساس بالتشابه يأتيكم من سماكة البلـــور

فقط . البلور القديم هو الجيد – وحتى ذلك الكـأس البلوري العادي المليء بالنبيذ الأحمر , ما هو إلا شــبهُ تلك الكؤوس التي معنا نحن الاثنين.والتي أسميتموهـــا بالأقداح – بصحتكم – ومرة أخرى : أهلاً وســـهلاً بكم , و معكم كل الحق فيما تقولونـــه , إن هـــذا الشراب لرائع . ولكنه ليس من صنعي , ولهذا لـــن أُمننكم بصنعه , ولحسن حظنا فان معمل الكحول الموجود في منطقتنا يعتبر من أفضل المعـــامل علـــى الإطلاق , ومديرهُ مازال يعرف من هو الكحـــول , وليس ما هو الكحول.

إنسانٌ, أسطورة ,وذواقة, وفي حالتـــــه , يســـتطيع سنونو وحيد أن يأتي بالصيف , ولهذا فان شـــرابه لا يمكن مقارنته مع نوع آخر ,انه حقاً لفاخر , وينقلك إلى عالم آخر.

هناك أناسٌ من أمثال مدير المعمل يتمتعون بالكثير من الحس الصادق , وعلى عكس الإحساس المزيف للكثيرين . والذين يكتفون بالشعور البسيط بالأشياء ويصرِّحون بأنه حس صادق . وهكذا , وحسب رأيكم فإنني بالدرجة الأولى مشاهدٌ يرى نفسه . بأس , وبصحتكم مرة أخرى . بالمناسبة :

–هل مدّ لكم كلبي ريجنت يده مصافحاً ؟ ريجنت : هل مددتَ يدك لضيفي

–هيا .. مُدها للسيد الطبيب ! انه كما ترى لا يريد مصافحتك , ونادرا ما يحدث ذلك . والعكس هو الصحيح . انه في الحقيقة لا يصافح من لا يستسيغه, وكذلك لا يصافح أولئك الذين يوشك الموت أن يأخذهم . أرجوك , لا تعتبر هذا الكلام موجهاً إليك شخصياً .

هل ترون علامات الانزعاج ,والحيرة في أعين ريجنت
-لماذا؟ -وهل تجدون فيـــها نوعـــاً مـــن الرجـــاء
والاستعطاف , والحيرة ؟ هل تعرفون قراءةَ عيـــون
الكلاب ؟ وماذا عن تصرفات جسدهم ؟ إن حركة
عضلاته . وتجعُد وبرّ جلده في بعض الأماكن يُشعرك
, وكأنه يريد الانقضاض على شيء مـــا , وهـــل
تسمع؟ إنه يطلق نباحاً هجومياً غير منتظر , أليـــس
كذلك؟ عليك في الوقت ذاته تتبع نظراته التي بـدأت
تعبّر ببطء عن شيء من الصعب تسميته . لقد التفت
إليكم الآن , ويمكنكم أن تقرؤوا ذلـــك في تعبـــير
وجهه .

-إنها حزورةٌ إن لم تكونوا تحبون الكلاب. هل تـرون
أنه ينظر إلي نظرة قاسية ,يريد منها إعلامـــي عـــن
غضبه لما تفوهتُ به أمامكم . إن صوت نباحه يوحي
بمقدرته اللا محدودة على القتال . ولكني أعـــترف

لكم بأنه يشعر بنوع من عدم الثقة , والحيرة مـــن جلستنا المشتركة . أعترف لكم أيضا بأنني أقــرأ في وجهه شعورا يصعب تسميته , إنه نوع من الشــك فيكم .وهو واضح بكل جلاء من نظرتــه إليكـم وظاهر من حركات رقبته ,وبلعومه ,ومن صــوت خنة نباحه الذي يشبه السعال المكبوت . وفي هـــذا النباح الخشن أستطيع أن أتحسس نوعا من عدم الثقـة , وكما أنه يحاول . وبكل جهده أن يؤنب صاحبــه ,أو أنه يحاول أن يشرح له بالصوت الخشن, الطريقـة التي عليه أن يتصرف بها في مثل تلك الأوقات .

إنكم أفضل من يرى بأن كلبي لم يحبكم,ولكن تصرفه هذا لا يعني مطلقا بأننا لن نتمكن من متابعة حديثنــا .

يا للغرابة , وهذا أقل ما يمكن قوله في هذا الشــأن هنا الآن كلب لم يستسغك, وفي الصباح كانت هنـد

امرأة , وحذرتني هي أيضا بشكل غير مباشـــر مـــن اللقاء معك . هل يمكنك أن تتصور أنه في صبيحـــة هذا اليوم , وفي الساعة الثامنة , والربـــع قـــامت بزيارتي امرأة أجهلها تماما . وأخبرتني بأنها مرسلة من قبل صديقنا المشترك أنا وأنت ياســـيد كليمنتيـــني , ومن يكون غيره . انه الصيـــدلي هوبـــرت فرتيـــاك ,وحسب زعمها فانه يخبرني أي الســـيد فرتيـــاك ,ويخبرك أيضا أنت السيد كليمنتيني بضرورة تـأجيل لقائنا المحدد سابقا ,وبكل أدب طلبت منها أن تخـبرني عن سبب تأجيل اللقاء , ولكن ردها على سؤالي جاء قاسيا . وشرحت لي بأن مهمتها لا تتعدى إخبـــاري بضرورة التأجيل ,ولا شيء غير ذلك , وبعد برهـــة أضافت , بأن السيد الصيدلي فرتياك سوف يخـــبرني في وقت متأخر . و بشكل مفصل عن سبب تـــأجيل اللقاء.

سألتها بلهجة صارمة أيضًا –كما أظن أنني فعلـت – عن علاقتها بالصيدلي فرتياك, وإن كانت مثلاً قريبته , وإن كان قد أرسل معها رسالة في هذا الخصـوص . أجابتني بأنها على معرفة جيدة به (وأنا أعرف معارفه جيدا ,وأعرف نوعيتها) . أبلغتها بـــأنني ســوف أتحرى الموضوع , وقمتُ بإجراء اتصال هاتفي مــع فرتياك , وتوقعتُ مخطئاً بأنه لن يكــون موجــودا , ولدهشتي كان هناك , وقال لي مكرراً بكل اختصـار ما سمعته مني قبل لحظات , وأتذكر بأنني أجبته علــى الشكل التالي :حسنا لقد خططت لحضــور الســيد كليمنتيني إلى منزلي لتنــاول الغــذاء , والآن أراك تقلبُ مشاريعنا رأسا على عقب . لِمَ فعلت ذلك ؟ اشرح لي باختصار , ما هو الموضوع ! علمًا بـــأنك سألتني البارحة , وقبل البارحة إن كان هناك أي تغيير في الموعد .إنك أفضل من يعرف –أي أنت الســـيد

كليمنتيني ـــ أفضل من يعرف حجم المساعدات الـتي قام بتقديمها إليك السيد فرتياك , ولهــــذا الســبب عليك ألا تتذمر من التأجيل . إنني بصراحة لا أعرف نوعية الحسنات التي قدمها إليك السيد فرتياك وذلك بالرغم من معرفتي الجيدة بأنـــه لا يـــتذر في تقــديم المساعدات,والحسنات,ولكن أرجوك ألا تغضــــب فإنني لستُ كلبَ فرتياك المطيع , لقد طلب مـني أن أُهاتفك بسرعة , وأُخبرك بإلغاء لقاء اليوم ,وهــــل اتصلت بك؟ –أبداً – حسناً إنك تجلس الآن معي , وكأن شيئاً لم يحدث . وهل حدث شيء؟ لا.إنـــني في الحقيقة لا أعشقُ الأسرار يا سيد كليمنتيني , وحَــذارِ أن تغادر الآن ! نعم إنه أمرٌ موجه إليك , وإنني جـادّ بكلامي .

أرجوك ألا تتسرع , ومن الأفضل لنـــا أن نشـــرب كأساً من الخمر , وصدقني بأن طلب فرتياك بالتأجيل

لم يُؤثر عليَّ قيد أنمله – وإنني اعتبرُ طلبه نوعاً مـــن عاداته الخاصة التعجيزية , والتي يعتبر مسؤولاً عنـــها خياله , وحساباته الفلكية , وأنا في الأصل لم أكـــن لأتعجب لو أن هذا الخبر جاءني بالهاتف , وان لم تكن قد جاءت به تلك المرأة الغريبة.

أرجوك أن تتحلّي بالهدوء , وسوف ترى أن ريجنـــت سيمدُ لكم يده مصافحاً عن طيبة خاطر بعد قليـــل , ويراودني شعور بأن عدم الثقة التي تبدو عليـــه الآن سببها المباشر تلك المرأة الغريبة . نادراً ما يحـدث لي ذلك –إن تلك المرأة لم تزعجني من الخبر الذي نقلتـه لي ,وكما كنت أتحدثُ لك , ولكن مظهرها العام كان السبب الأساسي في انزعاجي . إن إيمـــان فرتيـــاك بعلم الفلك والأبراج –ولنقل– قدْ أحدثَ تغـيراً في خططه , وان كان قد أقسم سابقاً بأنه سوف يلــتزمُ بوعده . إن ما أثر بي , وأزعجني في الحقيقة , كـــان

مظهرُ تلك المرأة وتصرفها, وكما ترى فإن أبـــــراج فرتياك الفلكية قد أثرت عليكَ , وعليّ , وعليـــــهِ . وغيّرت من مخططاته ومشاريعه.

فتحت الباب بعد الرنين المزعج, وأولُ ما أثار انتباهي في تلك المرأة كانت عيناها الكبيرتين ,ذات البيــــاض البور سلاني الشبيهِ بعيون الملونين السود , والخاليتان من أيّ مظهر لوجود أوعية دمويـــــة فيـــــها , يحيـــــط بقزحيةٍ عتمةٍ تتداخل مع الحدقةِ , وأحدث انعكـــــاس ضوء الصباح عليهما بريقاً نراه في الكــــرز الأحمـــر القاني حين يبدأ بالسواد في وقت الغـــــروب . لقـــد رأيت أمامي عيونا لا تتحرك . جامدة ,وجدت فيـــها توسلاً , ورغبة , وفي الوقت ذاته نظــــــرة آمـــرة , متسلطةً , وشعرتُ بأن شيئا ما مستعجلا لا يمكــــــن تأجيله , شيئاً قاسياً يسيطر على تلك العيون ,وهـــو شبيه بمنظر العيون عند إصابة صاحبها بحرارة عاليـــة

.لقد كان وجهها ناصع البياض وخاليا من قطـوة دم تلونه , وكما أن هذه المرأة المجهولة الصامتـــة , قـــد اصفرّ وجهها بعد قراءتها لبرقيةِ مصيرية .

لمْ يقرعِ الجرس أحد غيرها بدون شـــك ,قبـــل أن تتراجع نصف خطوة أو أكثر عن الباب. ولكن لِـمَّ فعلت هذه الحركة ؟ وأشعرتني , بأنهـــا الآن فقـــط اقتربت من الجرس . قرعتْ الجرس بسرعة , وجـــاء صوت الجرس شبيها بصرخات ســـيارة الإســـعاف المسرعة إلى المشفى بمريض يحتضر, أو سيارة الشـرطة الجنائيـــــة , أو جـــــــار مذعـــــــور.

اقتربتْ منها , ونظرتُ في وجهها وعرفتْ منه بأنهـــا تُخفي في جسدها , وفكرها الكثير من الألم , والكثير أيضا من الانكسار. كما في أغصــــان باقـــة الـــورد اليابسة.

ولكنها تبدو بشكل أو بآخر ,جميلةً ,ومختلفة عـــــن غيرها , (وإلى جانب العقد الذهبي المســـتلقي علـــى عنقها) يمكن للعين الخبيرة أن تميز من النظـــرة الأولى بأن بشرة وجه تلك المرأة المجهولة بـــدأت تغزوهـــا

التجاعيد ,علما بأن الكثيرين لا يمكنهم ملاحظة ذلك , لو أنها لم تضع العقد الذهبي حول عنقها, وتثير بـــه الانتباه. هذه المرأة ذات الثياب العادية المتواضعة , و ذات الوجه الشاحب كلون بطن العصفور , وقفـــت منتصبة في منتصف الممر. ويداها ممدودتان أمامـــها_ وكأنها تحمل في جسما ذا حجم كبير تريـــــدني أن أتسلمه منها _ كانت أصابعها , ويداهــــا مثـــيرتين للدهشة ,و شبيهة تماما بأيدي عمال المسامك الـلاتي نخرها اللحم المالح . من المستحيل أن تكون عاملــــة مسمكة بحرية , فكرت , وأنا انظر إلى البقـــع الـــتي تغطي أطرافها . هل أعرضت عن استعمال المساحيق المطرية للبشرة عن قصد ؟ أو أية أدوية تجميلية أخرى ؟ لم لا تراجع طبيب الجلد ليكتب لها عقارا يخفـــف من مرض يديها ؟ وهل تعمل بالمواد الكيميائيـــة دون أن تستعمل القفازات الواقية ؟ أو ربما , وعن قصـــد

تريد أن يرى الناس أيديها المتعبة بغية التعبـــير عـــن شقائها, وتعبها . لِمَ لا تستطيع الاسترخاء ؟ لِــمَ لا تمد لي يدها لتصافحني ؟ هل هي مصابة بالأكزيمـــا ؟ من هي تلك المرأة الغريبة ؟ حسنا, وإن كانت علـــى معرفة جيدة بذاك الصيدلي كما تقول , كيف لــه أن يتركها هكذا بتلك الأيدي المريضة ؟ مـــاذا تريـــد؟ ولماذا لم تترك يديها مسترخية بجانب جسمها ؟ لقـــد رنّت الجرس خمس أو ست مرات , وعندما وقفـتُ , واتجهتُ نحوها إلى الممر وجدتُ أمامي إنسانة خرسـاءَ , تتنفس بصعوبة. سألت نفسي , هل تشـــكو مـــن الربو؟ هل تبحث عني؟ وإذا كان ذلك صحيحا لِــمَ لا تنطق ؟ هل تبحث عن أحد من الموظفـــين ؟ الآن فقط ,وبعد أن تصفّحتها من شعرها, وحتى أخمـــص قدميها ,وسمعتُ صوت نَفَسها الخارج من بين شفاهها ليكسر الصمت المهيمن , في هذه اللحظة الحرجـــة ,

وبعــد أن تمكنـــــت , بدقـــة عاليـــة أن أرى عينيها,أنفها,وجنتيها,فمها,حواجبها , ذقنها, وأذنيها , تأكدت بأن هذا الوجه الطفولي الذي أراه أمــامي , قد عاشَ فاقةً مريرةً قبل أربعين عاما , فاقـــة مليئـــة بالمرارة والعذاب , والخوف الـــذي لا يُحسَـــب , والذي طبع حياتها , ودربها على الحيطة . والحذر من الناس , ربما دماغُ البوليس المتيقظ , أو الجرم الأصيل . شعرت بأن تلك المرأة التي لا تقهر (بالرغم مـــن العقد الذهبي المحيط بعنقها) عاشت حياتها بكل مـــا فيها من سعادة, وشقاء , وبكل بســـاطة , عاشـــت حياة ذات روتين واحد عبر حقبة مظلمة , اخضَّرتْ فيها بعض الأشجار المُغبَّرة المسيجةِ لجدارِ الســـجنِ البيتوني , وأنها عاشت خارج مجتمعنـــا القاســـي في سجن منزلي في بلاد أجنبية . أنها خرجت من دائـــرة الناس , وأصبحت متوحشة مستســـلمة لوحدتهـــا

,محلقةَ تحت غيوم سوداء ثقيلةٍ ليليةٍ .وهذا بـــدت لي , وبدا لي وجهها غير طبيعي , وفي الوقت ذاته كـان يُخفي في طيا ته الكثير من الرقة . وبدت , وكمـــا أنَ روحها, وبكل بساطة قد تدلـــت مـــن وجهـــها الحقيقي , وأضافت إليه الكثير من النعومة , والرقـــة بشكل ,حتى لو أنني نفخت في وجهها بكـــل قـــوة لتناثرت في الهواء . في تلك اللحظات العصيبة الـــتي عشتها شعرت كما أن أحداً ينتظُر , وبدون شـــك ســـوف ينتظـــــرُ لوقـــــت طويـــــل .

تَكلمتْ لأول مرة بعد عدة دقائق,وانتظرتْ اللحظـةَ التي انشغلتُ فيها بالحديث هاتفيا مع السيد فرتياك , واختفتْ بدون سلامٍ أو كلامْ . لقد كانت بحـــق امرأة غير عادية , ولكنها لم تحذّرني منكم — لســت أدري لماذا قلت لكم غير ذلك ,إنها زلةُ لسان , وهذا الموضوع يحتاج وقتاً طويلاً كي أشرحه لكم , حادثـة

قديمة , ومع ذلك هيا لنشرب النبيذ الأحمر؟ النبيـــذ الأحمر- بالنسبة لي على الأقل_ يذكرني بالأمان .

إن مرارته توحي بسر عميق , وكثيرا ما يشدنا كـي نتحسس أنفسنا من الداخل , ونتأكد من أننا ما نزال موجودين هنا.....هكذا بالضبط , يا ســيدي . إن مذاق النبيذ الأحمر , ورائحة الفطر المجفف, المتخمـر , وبقايا خشب الصنوبر المحترق ,جميعـها مشــتركة تجدد الرغبة في الحياة , وتوحي بحلول عيد الميــلاد في منتصف الصيف : عليك أولا أن تتذوق طعم الفطـر الأصفر – أنها من اختصاصي .بعد الشراب القـوي , قليلا الفطر ثم السمك المقدد . لن تندم . لقد صورك لي فرتياك انسانا أكولا نهما . لا , استرخ من فضلك ,كل هذا يبدو بدون أهمية ,وإنني بالتأكيد لم أكــذب عليك.

طعمٌ حامضٌ يفوحُ برائحةٍ مخمليةٍ _ بالضبط, ومـاذا تظن ؟ أنني لا أعتمد على علم الأغذية .عفـــوا , لم أسمعك جيداً.لا بأس . أظن بأنني كنت قـــد ألغيتُ معك الموعد , لو لم أرَ منظر تلك المـــرأة . ولـــو لم تكن تبدو كما بدت , لكنت ألغيت الموعد . لقـــد كانت شيئا مختلفا . ولو كانت قد سحبتْ من جيبـها علبةَ كبريتٍ لساورني الشك بها .لا , لا أصدق مثل تلك الأمور .

القدر. هل تؤمن بالقدر ؟ أنا لا .عند سمـــاعي بـــأن أحداً قد شده القدر.....– ولكني أعـــرف أمـــراً واحداً وبالتأكيد : هناك حيث يتدخل العقل , كمـا يقولون تبدأ ساحةُ الرب , ولكـــن ليـــس الطريـــق السّوي إليه ,وحسب ذلك ,وكيف جئتم , وبشـكل أساسي , لماذا حضرتم , يبدو لي أنكـــم تحضّـــرون أنفسكم لأهم حدث في حياتكم , هذا ما عرفته مـــن

فرتياك . وهكذا فان الإنسان يحضّر انتحارهُ , عرسهُ ,وجنازةً والدته .لا تتظاهر وكأن كلامي لا يروق لك .أشعرُ , وكأنك تفهم النكتة . والآن إلى الموضوع :

عندما يحتفظ الإنسان بذكريات هامة في ذاكرته ,ذكريات لا تنسى , أو تمحى من الذاكرة بأي ظرف من الظروف, أو ذكريات سيئة لا يمكن تنظيفها, وعلى عكس بقع الدم القديمة,ومنذ الأزل والذكريات تعود إلينا بشكل غير متوقع , ومن حين لآخر تحاول أن تزعجنا, وتكدر مزاجنا , مثلها مثل صوت المنبه المزعج حين نكون مستغرقين في النوم في الوقت الذي لم نكن فيه أصلاً قد خططنا لرنينه ,ونسأل أنفسنا , لماذا؟ ,وفي تلك اللحظة بالذات بدأ الرنين .

لا بد, وأنك قد مررت بمثل هذه التجربة , وتعرفُ مقدار الانزعاج الذي يسببه المنبه . أليس كذلك ؟

انه لأمرٌ غريب,ولماذا لا تحضرنا بالذات تلك الذكريات التي تبعثُ السعادة في قلوبنا ؟

والآن إلى موضوعنا :

عندما بلغت العشرين من العمر , العشرين وبعضُ الساعات ,التقتْ في مترلنا مجموعة كبيرة من الناس , والى جانب أصدقائي في المطبعة , وزملائي , وزميلاتي من أيام الثانوية , وأقربائي بالدم , تَذكرني أيضا أقربائي البعيدين , أولئك الأقرباء الذين يقال عنهم ,بأهم عائلتي من طرف الخترير المرحوم .

سادَ جلستنا جوٌ مليء بالنكات اللاذعة , والضحك , والمزاح , وتحدثنا في العديد من المواضيع . لا أدري كيف حدث ذلك , ولكنني أذكر بشكل جيد بأن عائلتي بكاملها من أقرب الأقارب إلى أبعدهم , والذين ربما رأيتهم لأولَ مرةٍ في حياتي في حفلة عيد

ميلادي . قد أصابتهم حمى الكلام . وبدا الأمر بينهم وكأنه سباق يتبارون فيه بكيل المديح لأنفسهم (بالمعنى العكسي للكلمة) , ولا أريـــــد يـــا ســـيد كليمنتيني أن أقول بأن كل ما تحدثوا به كان محـــض كذب وهراء ,لا على كل الأحوال . وكما تـأكدت لاحقاً, فان كلاً منهم كان يتكلم عن تجربةٍ حقيقيةٍ عاشها , ولكنهم كانوا يتحدثون عنها بشكل مقـرف , ومقزز, ومع ذلك يحاولون تسويق أحاديشـــــهم في قالب جميل , وربما كانت الأمور ستبدو أفضـــل إن لم يكونوا قد شربوا حتى السكر,وان لم يكونوا يلوحون بأيديهم . ويظهرون أهميتهم , وأهمية حديثـهم , وان كانوا أيضا لا يُقسمون الأيمان , و يضربون أيديـــهم على صدورهم لتأكيد صحة أقوالهـــم ,ويمســـحون أيديهم على ركبهم , وكأنهم يُمررونها على ركـــــب

لاعبات الجمباز الجالسات أمامهم . وحــــده جـــدي كان يجلس صامتا طوال الوقت .

كان النقاش بينهم قد وصل في مواضيع مختلفـــة إلى حد المهاترات , وبالطبع استقر الحديث في النهايـــــة على مواضيع تتعلق بتجاربهم الشخصية , وبما عاشوه في حياتهم .

إنني في الحقيقة لا أتذكر , ومهما حاولت جـــهدي كيف وصل الأمر إلى أن يروي كل منهم إحدى أهم ذكرياته التي عاشها . صفق الجميع , وفجأة وبـدون مقدمات صرح أحدهم , وكان واقفا –بأن الحادثـــة الأهم , والتي لا تنسى في حياته ,قد جرت له حين كان جنديا يخدم على الحدود بالقرب من منطقـــــة ميكلوفا ,حيث أصبح بين ليلة , وضحاها رقيبـــا في الجيش بعد أن كان جنديا عاديا . و سبب ترقيتـــــه السريع , يعود لكونه قد أصاب ببندقيته أحد الهاربين

المتسللين عبر الحدود النمساوية التشيكوسلوفاكية . توردت وجنتاه خجلا حين كان يتكلم , وأصبحت تشبه وجنات مريض مصاب بالسل في أيامه الأخيرة --كانت ليلة حالكة السواد , وتابع روايته للحدث على الشكل التالي :

......قطعته إربا بتلك الطلقات السريعة ,وكما تطعن الصفيح بالسكين , بعدها رأيتهم يجرونه على الأرض . لهذا السبب كوفئت بترقيتي إلى رقيب , كنت الأول في القطعة ! كان عليكم أن تتصوروا ! لا يمكنكم أن تتصوروا إلى أي طاولة أجلسوني في المطعم , ومن كان يجلس أمامي على الطاولة ! كان هناك النقيب ...(كاد صوته يتقطع من السعادة) , وقال لي بعد منتصف الليل : كان عليك أن تقرأ رواية "الرجل الحقيقي لبوريس بوليفويا" لكونك أنت الرجل الحقيقي بين الرجال الموجودين معنا ,

والذين يشعرونني , وكأنهم أهدافا سهلة لرصاص العدو , وهم في أعلى درجات الخوف!

وأهم ما في الأمر , أنني حصلت على إجازة ! وفي اليوم الرابع بعد الحادثة كنت في البيت , و أصبحت رقيبا في الجيش ! وتصوروا إنني استطعت أن أضيق سروالي حتى ذلك الوقت ليتلاءم مع رتبتي الجديدة .في السابعة مساء كنت في سريري مع مارينكا !

وليؤكد حديثه قال : يمكنكم أن تسألوا مارينكا عن الحادثة, وتتأكدوا من صحة ما أقول .أليس كذلك يا مارينكا !؟

قضينا الليلة معا في منزل والدتي ! التي رتبت لنا السرير , وأوقدت المدفأة في الغرفة الأمامية من منزلنا ووضعت بطانية صوفية رقيقة تحت جسمينا, ووضعت الثانية فوقنا , لقد كانت من النوع الرقيق, وقالت لنا : تمتعا بليلتكما يا أولادي

لن أنسى ما قالته أمي (سمع ضحك في الغرفـــة) , وما حدث للقتيل الهارب على الحدود , وترقيــتي إلى رقيب , وكيف جلست على طاولة النقيب , وبجانبي الضباط _كل ما رويته لكم يعتبر أجمل ذكـــرى في حياتي !

كان جدي يجلس صامتا حتى تلك اللحظة , وفجــأة أفاق من صمته , وقال : سوف أخبركم عن شـــيء مختلف تماما , عن شيء لا يمكنني أن أنساه ما حييــت .

تعلمون بأنني قاربت الثمانين , وأضاف بأنه خـدم في الحرب الأولى , وكان في الرابعة عشرة من عمــره حين سحب للحرب في البوســنة , وفي الخامســة عشرة انتقل إلى الجبهة الشرقية , و تابع قـــائلا : أصبت بشظية في يدي من قنبلـــة يدويـــة في نهايـــة أكتوبر, ونظرا لعدم التئام الجرح في إصبعي المتوســط

, اجتزت دورة تدريبية في قيادة السيارات العسكرية
, وأصبحت سائقا لسيارة الإسعاف , وتابع شـــارحا
كيف كان الروس يقفون في مواجهة النمســـاويين في
الجبهة , وكيف كان البولونيون من أصول نمساوية
يعملون كمترجمين للأسرى الروس , وكيف أنـــه لم
يعترف لأحد بأنه يتكلم الروسية , ومعرفتـــه للغـــة
الروسية جاءت من كونه قضى إثني عشر عامـــا في
سانت بيتربورغ , حيث كان يعمل هناك في أحـــد
المتاجر الكبيرة (اورسكا) كنائبـــا لرئيـــس قســـم
الأدوات المنزلية . في تلك الأيام مـــن عـــام ١٩١٥
,وتابع: وحتى حين سحبت للخدمة كان بالإمكـــان
إخفاء العديد من الأمور العسكرية . نهاية الأمـــر لم
يكن أحد يعرف أنني أتحدث الروســـية , ولا حـــتى
قائدي, أو غيره ممن كانوا يخدمون معـــي , وتـــابع
حديثه قائلا : كنت في الفرقة الصغيرة التي كـــانت

تدعى "ريجمنت " وكان هناك العديد مـــن الـــروم المسيحيين , ولم يكونوا من الصرب الأنقيـــاء , بـــل كانوا من أنواع مختلفة

كان الشباب من الحدود الصربية من فويفودينـــا , ومن دالماتنتسي (مناطق حدوديـــة في يوغســـلافيا), والذين سحبتهم القيادة العسكرية إلى الشـــمال , إلى الجبهة الشرقية لكي لا يقاتلوا ضد الصرب , وطبعـــا ذلك يعني ضد أولئك الذين يتكلمون نفس اللغـــة , ولهم نفس العقيدة الدينية , وتـــابع جـــدي حديثـــه متذكرا: أتت أعياد الميلاد الثانية , وكنا في الخنـــدق ,و لم تكن أعياد ميلاد كما نعرفها الآن , حيـــث لم يصرخ هناك أحد "عاشت الحرب " كما في الســـنة السابقة , وأخيرا قال جدي" سأخبركم بأهم حدث عشته في تلك الأثناء من خدمتي العسكرية .

كانت تجري احتفالات جدية بأعياد الميــلاد , ورأس السنة في عام ١٩١٤-١٩١٥ ,وحــتى في زمــن الحرب , كان الجميع متمسكين بالاحتفـــال , وفي الجبهة كان الجميع ينظرون إلى ذلك اليوم على أنــه يوم ولادة السيد المسيح , حيث تصمت المدافــع , ويتوقف معها النشاط العسكري . لم يكن أحد مــن الفريقين المتقاتلين يطلق رصاصة في ذلك اليـوم , ولم يشن فريق على الفريق الآخر هجوما مباغتا . كـــان ذلك قانونا معروفا , وغير مكتوب ,وعلى الأقــل في الجبهة الشرقية ,و بإمكان الجنود من الطرفين رفـــع رؤوسهم من الخنادق .كان الهدوء يعم الجبهة في ليلة الميلاد , إلى درجة أنكم تســمعون هنــاك صــوت العصافير مغردة , وهي تقفز على أغصان الأشجار , ما أريد أن أقوله هو أساسا, بأن الــروس الــتزموا بوقف إطلاق النار , ولم يقوموا بأي هجوم في تلــك

الليلة, أو في الليلة التالية , ولا حق في يوم شـــتيفان المعذب , ونحن النمساويين من جانبنا أيضا التزمنـــا,و لم نقم بأي هجوم في تلك الأيام التي يقدسها الــــروم الشرقيين أي الروس , ولكن ماذا حدث لي قد فــاق كل التوقعات ؟

أحد أولئك الجنود , وبطريقة لا أعرفها حـــتى الآن , اكتشف بأنني قد عملت في روسيا سابقا , وفي مدينة سانت بيتربورغ بالذات, وبهذا توصل , وزمــــلاؤه إلى نتيجة مفادها , بأنني أعـــــرف اللغـــة الروســـية ,وهكذا جاءوا الي , واقتادوني إلى إحـــدى زوايـــا الخندق الفارغة ـــ وكنت في ذلـــك الوقـــت برتبـــة عسكرية- ودخلوا معي في الحديث مباشرة ,طـــالبين مني أن أقتادهم إلى الخنادق الروسية على الطـــــرف المقابل من الجبهة , ليحتفلوا مع الروس بأعياد الميلاد , وعلى طريقتهم الخاصة . صدقوني بأنني في اللحظـة

الأولى ظننت بأهم عملاء للروس ,ولكنني , وبسرعة طردت تلك الفكرة من رأسي , وذلك لمعرفتي بـأهم عبارة عن جنود أميين متسلحين ببطون كبيرة , وأيد تشبه في منظرها حجر الطاحون , وكانوا يشكلون في غالبيتهم العظمى فلاحين من منطقة "نوفي سـلد" , أو من إحدى المناطق الجنوبية , وباختصار من إحـــدى المناطق النائية.

أعترف بأنني في قرارة نفسي أحببت الفكرة, وأردت الذهاب معهم إلى خنادق الروس , حيث كـــانت لي صديقة في سانت بيتربورج , وكنت أريد أن أطلـــب يدها في ذلك الوقت , وكنت أنتظر اللحظة المناسـبة لذلك , ونحن العاملين في الإسعاف لم يكن باستطاعتنا الاستسلام للعدو مباشرة في وقت الحرب , لكوننا في مؤخرة الجيش العامل .وعدت أولئك الروم الشرقيين بأنني سوف أذهب برفقتهم , وربما كـــان قـــراري

بالذهاب آتيا من خوفي الشخصي من الحرب ومـــن الخـــوف منـــهم , ولكشـــفهم معرفـــتي باللغـــة الروسية , وذلك بالرغم من أنني لم أكـــن متـــأكدا إمكانية تنفيذي ذلك الوعد

ولكن الأعياد لا تنتظر أحدا , وشعرت في إحـــدى الأمسيات , بأن الوقت قد حان لتنفيذ ما وعدت بـه , وكان ذلك حين استلم الضابط المســـؤول عـــن سريتنا رسالة من عائلته ,ولشدة تـــأثره بمضمونهـــا شرب حتى الثمالة , وبدأ بالبكاء كطفل صغير حـــين وضعته في السرير لينام , وهكذا ومع بداية الغـــروب بدأنا بالزحف عبر ساحة القتال,عبر الشريط الأرضي المتعرج , وكانت الشمس قد بدأت بالمغيب ,وكنـــا نزحف على الأرض ,كالحلزون .لابد وأن الحـــراس على طرفي الجبهة قد لمحونا ,ولكن أحدا منهم لم يطلق النار علينا.

قلت للجنود مازحا أثناء زحفنا : بأن أعين الحـــراس مقلوبة إلى الخلف . ولكني اكتشفت بعد مدة أنهـــم لم يفهموا كلامي ,وما أعنيه من العيون المقلوبة ,وأخيرا وبعناية الله وصلنا الى الخنادق الروسية مبللين , ومـــا أثار دهشتنا هو أننا وجدنا في الخندق الروسي شجرة صغيرة لعيد الميلاد , مزينة بقصائص من أوراق الزينة كان الروس قد أعدوها للاحتفال , ولدهشتنا الأكبر عرفنا بان الروس كانوا بانتظارنا , وتوقعوا حضورنا , وهل كانوا ؟ لست أدري , وأظن أنهم لم يكونـــوا, ولم إذا لم يندهشوا من حضورنا ؟ لقد استقبلونا بكل ترحاب , ولم يسألونا عن أي شيء يتعلـــق بـــالأمور العسكرية , وإنني أقسم على ذلك .

أمر غريب .. أليس كذلك ؟ بالتأكيد إنه لأمر غريب , لقد كان الحديث بيننا بأكمله يتمحور حـول ولادة السيد المسيح , ونسيت أن أخبركم بأن مجموعتنـــا

كانت قد أحضرت بعض الهدايا المتواضعة للجنـــود الروس , من حلويات, وتفاح , وكانت بمجملها مـن الهدايا التي استلمها الجنود مـــن عـــائلاتهم بمناسـبة الأعياد , ولقد كان الجنود الــــروس , والصـرب النمساويين في غاية السعادة من لقائهم المشـــترك في تلك الليلة .كان ذلك لقاء مدهشا , ومؤثـوا لم أر في حياتي مثيلا له ,لقد غمرتهم الدموع إلى حد جعلـهم يظهرون , وكأن وجوههم تسبح بها .تبادلوا صــور عائلاتهم فيما بينهم , وأصوات البكاء لا تفارقـهم . واشتركوا بعدها جميعا في تأدية الصلوات , وسـألوني أن أشاركهم بها . أجبتهم بأنني أفـــهم الروســية , ولكنني افنغالي , لم يفهموني , واستمروا في عنـــاق بعضهم البعض , وفي ترديد الصلـــوات , وتبـــادل الصلبان , والأيقونات الصغيرة المعلقة حول رقـابهم , وفي النهاية عدنا بكل هدوء كـــالنمل إلى خنادقنـــا

النمساوية المجرية . لقد كان تموين الجنود القيصريين في غاية السوء , لم يكن لديهم تبغ ,ورأيت مع أصدقائي بعضا من الهدايا التي تلقوها من الروس , وكانت في غالبيتها عبارة عن حبات من الفستق ,والخوخ المجفف, وبعض الحلويات (بيروجكا) التي يبست بسبب الطريق الطويل الذي قطعته للوصول إليهم .

وهكذا انتهت أعياد الميلاد الكاثوليكية , وكذلك أعياد الميلاد الشرقية , وبدأت أصوات المدافع تسمع على طرفي الجبهة من جديد,وبدأ القتال يشتد ضراوة بين الفريقين ,حيث بقرت البطون ,وأخرجت الأمعاء والطحال ,وفتحت الصدور بكل قسوة بين المتحاربين , الذين يدينون بمعتقداهم لدين واحد , والذين كانوا قبل أسبوع واحد يعانق بعضهم بعضا في الخنادق

الروسية . لماذا؟ كل ذلك لتنفيذ الأوامر؟ ولخوفـــك من القتل فانك مجبر أن تقتل .

إن هذا الكلام , وهذه التفسيرات ليست صحيحـــة على الإطلاق,وهي عبارة عن ديكورات ملفقة , وفي الحقيقة لم يكن القرار آتيا من الأوامر ,ومن الطاعة لها . إن السبب الأساسي كان, وما يزال ,وسيبقى دائما سرا كبيرا .

جلست في الخندق بحالة الاستعداد , وبجانبي النقالة , وغيرها من الأدوات الضرورية للإسعاف,ورأيت بـأم عيني , وبعد الهجوم مباشرة , كيف كان واحد ممـــن زحفوا معي في تلك الليلة إلى المواقع الروسية , وهــو يلف بكل تأن ,واهتمام أمعاء أحد الجنود الـــــروس حول بندقيته , وكما يلف ضمادا حول جرح نازف.

.

اشرح لي –يا سيد كليمنتيني– إن أحدا منا لا يعـرف نفسه إلى الحد الذي يتوقع فيه مسبقا تأثير تلك القـوة , أو تلك التصرفات . لهذا وبعد تلك الذكريـــات , فإنني أتحدث بشكل آخر عما كنت أتوقع , وإنــــني أتعجب من نفسي , ولست سعيدا من تصرفـــاتي , وأشعر بأنني إنسان سيئ . إن الفسحة الواســـعة في العقل الباطن للإنسان لا يمكن الاعتماد عليها ,وهــي شبيهة برمال الصحراء المتحركة .

باختصار شديد : إنني أعرف أن الصيدلي فرتيـــاك, وأظن أنك تخاطبه بالمفرد قد روى لك عني ما يكفـي . إننا نعرف بعضنا منذ مدة طويلة , منذ ما يقـلوب الأربعين عاما , ولا بد أنه أخبرك عني الشيء الكثـير , لأنه يحب الحديث عن الآخرين , ولكنه لا يغتـاب أحدا ,ولا أدري إن كنت قد شعرت بذلك , وهـل تعرفون بعضكم منذ زمن طويل ؟

–إنه يتميز بأذن موسيقية فريدة ! و ليس للموسـيقى فحسب بل لأصوات معارفه , ويمكنه مثلا أن يعـرف من نبرة صوتك على الهاتف إن كنت قـد شـربت قدحي نبيذ أو أكثر , وأول ما تسمعه منه قوله لـك مؤنبا:اندرو لقد شربت قدحي نبيذ في غيـابي , ألا يمكنك انتظاري لنشرب سوية ؟ ويبدأ طبعا بالضحك . يمكنه أن يعمل في المسرح ,وحتى الآن لا أفـهم , لماذا لم يحترف الموسيقا , وإنني على قناعة تامة بأنـه

كان سيصبح عازفا مشهورا للبيانو , وعلى مستوى عالمي , لو أنه احترف الموسيقى , إنها لعبة عظيمـــة- وان كنت لا أفهم الموسيقى . ومرة سألته: كيف مـن يمكن أن يولد بهـــذه الأذن الموســيقية , ضحـــك , وأجابني :حدث ذلك عندما كانت والدته حاملا به , وكانت تتألم من كل شيء جميل, و تتأسف على جمالها الزائل ,وعلى كل شيء جميل . لم أفهم قصده , وهل هذا بربك جواب مقنع ؟

ولماذا الجمال بالذات ؟ لأنه لا يدوم ؟, وهل يمكـــن للإنسان أن يأسف على شيء فقط لكونه جميـــلا , و زائل لا يدوم ؟ وكما أعرف ذلك الصيـــدلي فإنـــه يروي الأشياء الأساسية فقط,يعطيك معادلة, وعليك أن تحللها , وتفك رموزها.لابد أنك خبرته من هـذه الناحية أيضا.

ربما يكون قد أخبرك بأننا ولدنا في البرج نفســــه, حسب الأبراج الصينية , أو التيبيتية. ولكنه يصغرني بعشرين عاما , ولكن , وحسب ما تأخذه النســاء على محمل الجد , فإنني ولدت في برج الســرطان , ومن وقت لأخر , ويحدث ذلك مــرة في الســنة , وربما أحدهم يريد قراءة برجه , ولذلك تــراه (أي فرتياك) يسحب كافــة أوراقــه الفلكيــة ,ويبــدأ بالحساب, ولكن المهم ليـــس هنــا. الأساســي في الموضوع , هو أن الناس يصدقون كل كلمة يتفوه بها , ولهذا فإنني حتى الآن لا أفهم , لمــاذا أراد إلغــاء موعدنا . ربما يكون السبب آتيا من الأبراج.

لقد تعرفت إليه–أي إلى الصيدلي فرتياك –في إحــدى الفيلات الموجودة في منطقة تاشكنت ١٣ , وكــانت هذه الفيلا قد بنيت في نهاية عهد الجمهورية التشيكو سلوفاكية الأولى , وكان كل منا يسكن بـلأجرة في

إحدى غرف تلك الفيلا ,ولم نكن قد التقينا في السابق , إن كان في تلك الفيلا , أو حتى في الشارع . كان مالكو الفيلا أناسا يعملون في التجارة . في منتهى اللطف , والأدب. يحبون مساعدة الناس , ويؤجرون القبو أيضا ,كان كل شيء في المنزل نظيفا , أبيض . المدافىء , وغرف الجلوس . منتهى التهذيب ,والشهامة . الهاتف, وأسرة حديدية طابقيه , سرية كاملة,كانت هناك فتاة ؟ لم تكن ؟ لا أحد يتذكر .كانا يعملان في البوليس السري , وباختصار ,في أحد الأيام – وربما كان الوقت خريفا أو ربيعا–ولا أذكر بالضبط.صعدت إلى سطح البناء لأنشر قميصي المغسول, وبعض السراويل ,وعادة وفي كل مرة أجد الكثير من الغسيل الأبيض المعلق على الحبال , ولكني خلال لحظات تنبهت لوجود أقدام رجل ينتعل حذاء (نصف بوط) , وربما نمرة ٤٤ , ويرتدي سروالا

بلون غير واضح ,معلقا في الهواء .كان الحذاء أسـودا لامعا , وهو ما يدعى بالحذاء البودابستي (نسـبة إلى مدينة بودابست عاصمة المجر), والـذي لم يعـد في الموضة منذ زمن طويل .ذو مقدمة دائرية الشـكل, وكعب سميك , وبالرغم من أني رأيت ذلك الحـذاء , و السروال القصير والأقدام المتأرجحة في الهواء . إلا أني ودون تفكير طويل.ومسبق تجـاهلت المشـهد , تجاهلت رؤيتي لتلك الأقدام المعلقة في الهواء ,وهـذه الأمور كنت قد تعلمتها في السجن .تعلمت إنكـار ما كنت قد رأيته , و هذا عادة ما تتعلمـه خـلال إقامتك في السجن . أدرت رأسي , وتأكدت مـن أن الأفكار التي كنت أزرعها في رأسي طوال إقـامتي في السجن مازالت تعمل بشكل جيد ومؤكد .

لقد أقنعني تفكيري المكتسب في السجن ,بأن الغسيل المعلق ,الضباب ,والريح , والسطح , وشعاع الضوء

، وإرهاقي ، وتعب الإنسان الذي يقف على قدميـــه منذ الثانية والنصف صباحا، إضافة للقلق ، والإحباط المتواصل ، يوصل الإنسان ليصبح واهما ،ولا يرى ما تراه عيناه . هل تعلم : أنني كنت أريد أن أتعايش مع السجن ،والمعتقلات وأقبيتها،والإنفرادي (السيلول) في فالديتس (سجن كبير معروف في تشيكوسلوفاكيا) ، وأبقى على قيد الحياة كان علي،وصدقني فيما أقوله لك–علي أن أنسى ، وأن أتعلم كيفية إخفاء أنفـــي بين عيوني .كان علي أن أتعلم (وكان ذلك يتطلـــب تدريبا مقيتا) أن أكذب على أحاسيسي ! وفي الوقـت ذاته أن أعرف بأن العيون الحقيقية يجب أن تكـــون عائلة العيون المزيفة ، لأنك ، وبدون تلك العيـــون المزيفة لا يمكنك الحفاظ على عيونك الحقيقية . علـى الإنسان أن يساعد نفسه في كل مكان،ويتسلح برياء مطاطي ، وطبعا أمام نفسه،ولقد أجـــبرت نفســي

,ودربتها على الاعتقاد,وتصديق الأشياء المستحيلة, ولكوني تعلمت الكذب في السراب , وتمنيت أن يكون هذا الشيء , وذاك الشيء , وهذا وذاك,بقيت هذه العادة متأصلة في نفسي . الجرح ,والإعاقة الجسدية بقيتا مغموستين في روحي , وتعلمت أن أرى ما أريد رؤيته , وهذا الظل الذي أنشأته , واخترعته تحت تأثير فالديتس . بقي أميندلي , وصديقا ملازما لظلي الحقيقي . يمكنك أن تتصور هذا الأمر إلى نهايته ,أن ترى فقط ما تريد رؤيته .

ألا يشبه ذلك إلى حد ما النصائح التكنولوجية التي تراها مدونة في كاتالوك الأجهزة الكهربائية . كيف علي أن أرى ما يجب علي أن أره حين أصبحت طليقا ؟ ألا ترى بأن عيون الإنسان يمكن تدريبها , وبعد ذلك إعادة تدريبها , وتأهيلها حسب قرارات الحزب الجديدة , هل تدرك يا سيد كليمنتيني ؟ لقد

تعلمت في السجن أن أصنع ديكـــوراتي الخاصـــة . صدقني , إنه من الصعب بمكان أن تعيش في النظـــام الرأسمالي , أو الاشتراكي , أو حتى في الأنظمة ما بعد الشيوعية بدون ديكورات . ربما تتعجب من كلامــي – ومعك كامل الحق –كوني أخفيت عن نفسي ذلك البوط المتأرجح البودابستي بعد ثمانية عشرة ساعة من يومي المرهق؟هنالك أشياء لا يمكنك أن تتعايش معها, ولا يمكنك أن تتحملها. إن لم تشيد في رأسك قصرا محمولا على أرجل غراب , وليس المهم نوعية هـــذا القصر الذي سوف تشيده في رأسك , ولكن المـــهم فيه أن يبنى على أرجل غراب (أساساته من أرجـــل الغراب, أي تعيش على الخيال والوهم) , وفي نهايـــة الأمر فانك أفضل العارفين , إن كنـــت في الثالثـة والعشرين لا يمكنك العيش بدون قصر مشيد علـــى أرجل غراب في الغرفة المنفردة في السجن .

في صباح أحد الأيام , وجدت في القصعة النحاسية التي استلمتها من الحارس إلى جانب شيء يدعى القهوة الصباحية قطعة من جريدة , وكانوا عادة ينوعون قصاصات الجرائد . مرة من جريدة الحزب "الحق الأحمر" , وتارة أخرى من جرائد أخرى لاستعمالها في مسح المؤخرة , وحدث مرة أن رأيت في تلك القصاصة الورقية , وربما كانت من مجلة "زهور " المعروفة , أو من مجلة أخرى , ولا أذكر بالضبط , رأيت صورة عارية لفخذ امرأة , مع بطنها وثدييها , وربما كانت عبارة عن صورة طبق الأصل لامرأة شهيرة ,تصفحتها مليا, فارتسمت في مخيلتي , وبعدها حل الظلام , ولكني لم أستطع , وبالرغم من الظلام الدامس التخلص من الصورة المذكورة التي التصقت في ذاكرتي . انتصب قضيبي , وبدأت .....بيدي اليمنى ,وكما جائع استلم الطعام, وبيدي

اليسرى كنت أقبض بقوة على قصاصة المجلة . إنـي أتذكر هذه الحادثة تماما , وطبعا كـــانت الجرابيـــع تشاركني , وتتحرك , وتثير ضجة مزعجة برقصاتهـــا اللعينة ,ولم أتمكن في لحظتها التخلص من فكرة خيالية اقتحمتني ,و بأن تلك الجرابيع التي ترقص من حــولي تبتلع حيواناتي المنوية , بروتيناتي , ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ كنت شابا , و ما زلت أملـــك في جســـدي الكثير من الفيتامينات .

أقسم لك يا سيد كليمنتيني بأن سجن فالديتس رقــم ٣ وبكل ما فيه من قسوة يمكن أن تتعـــايش معــــه , وحتى الرياضي لاعب كرة السلة يمكنه أن يتحملـــــه بشرط واحد , وذلك بتحويل رأسه إلى قطعة مــــن الخشب المطواع الطري ,والذي يمكن تكبير حجمه , وتصغيره حسب الطلـــب , إلى رأس يمكنــــه تقبـــل الأشياء, وهضمها, وبلعها بدون سؤال , ويأخذهـــا,

وكأنها حقيقة غير قابلة للنقاش . لقد عرفت إذاعة صوت أمريكا اللعبة بكل تفاصيلها , ولهذا كانت تودع المستمعين كل ليلة بعبارة " أتمنى لكم ليلة سعيدة وأملا راسخا" وهل تعرف عدد الناس الذين ساهموا في بناء الاشتراكية ؟ يغتسلون في مطلع الفجر , وبعدها يهرولون إلى الحافلات , وإلى المعامل الخ..." أمل راسخ " يالها من خدعة .

ميزة أخرى , حصلت عليها في سجن فالديتس,وساعدتني على التحمل , حيث أنني , ومنذ طفولتي أعشق الانفراد, والجلوس في الظلام , في الجو الهادئ , ولساعات طويلة , وحتى الآن لا أعرف السبب , ولكني مع ذلك كنت في حينها أشعر بالسعادة . إنني لا أتذكر بالضبط ما كان يدور بذهني,وهنا أقصد حين كنت طفلا . لقد كان والدي

المرحوم يعمل جاهدا ليحثني على التخلص من تلـــك العادة ,وكما ترى , لقد ساعدتني حين كنت ســجينا في الانفرادي , وتحت الأرض . عليك أن تتعود على الظلام , وعلى الجرابيع , والماء البارد . عليـــك في الأيام الأولى أن تتماسك , و تتحمـــل, ولا تفقـد أعصابك . إن أهم شيء في هذه الحالـــة أن تطــوع الوقت ,علما بأن ذلك أمر في منتهى الصعوبـــة , إلا أنه مع ذلك يبقى ممكن , وهذا يعتمد بالضرورة على قوة المطوع الموجود في داخلك.

هل بدأت تفهم ؟ وهل تصدقني ؟ لقد أقنعت نفســي بأن البوط البودابستي,والأقدام المعلقة ذات السروال القصير ما هي إلا محض أوهام تخيلتها , وأنني لم أرهـا , وذلك بالرغم من أنني كنت أنظر إليها . وهنـدوفي تلك اللحظة الغامضة سمعت وقع أقدام مسرعة تتجـه نحوي , لقد كانت أصوات أقدام فرتياك,وكان يحمل

في يديه إناء مليئا بالغسيل , وهنا ,وفي هذه الظـروف تعرف أحدنا على الآخر ,وكاد أن يصطدم بي , حين تنبهت بأن تلك الأقدام المتدلية كانت تقـــف علــى كرسي حديدي مقلوب من كراسي الحديقة .

لقد كان المشنوق صهر صاحبة البيت, وتلك الرسالة -التي لم أتحدث عنها-كانت معلقة على حبل بالقرب من النافذة , ولم تكن في البداية ظاهرة بشكل جيـد , وتشبه زيارة غير مرغوب بها. أو مثل بطاقة دعـــوة مكتوبة بخط جميل على ورق سميك , لقـــد قــامت صاحبة البيت بقراءتها بعد الجنازة أمام جميع الساكنين في البيت, و عرفت لاحقا , بأن صهرها كان يــتردد كثيرا في الآونة الأخيرة على الأطباء , وكان يشـــكو من آلام في أماكن مختلفة من جسمه ,في البطـــن , في المعدة , وفي الصدر,و بالقرب من القلب , وفي رأسه أيضا, ولكنه في النهاية لم يكن يشرح بشكل دقيـــق

الأعــراض الحقيقيــة لمرضــه , وبكــل طيبـــة

خاطر اهتم به الأطباء, وكانوا يرسلونه لإجـــراء التحاليل . والفحوص الضرورية –لأن ابن عمـــه يعمل في مكتب الهجرة والجوازات– لكن بـــالرغم من كل التحاليل , والعناية الفائقة ,لم يستطع أحـــد من الأطباء أن يشخص مرضه ويعالجه .

رسالة المشنوق _وهذا شرح ممكن– انتـــهت علـــى الشكل التالي:

أنه يعتقد بشكل قاطع مئة في المئة بـــأنهم كـــانوا سيتمكنون من علاجه,وربما من شفائه أيضا, لو أنـــه أعطاهم رشوة , وهذا شيء لا يمكن أن يقوم به بـــأي حال من الأحوال, وأنه على مـــدار حياتـــه لم يقـــم برشوة أحد , ولهذا السبب قرر أن يشنق نفسه علـــى أن يعطي الطبيب , ولو خمسة كورونات ! وللعلـــم

فان المشنوق كان بالأصل رجل أعمال سابق .لقـــد أصبح ثريا في الثلاثينيات , وذلك مـــن عملـه في لازقات الذباب الورقية التي توضع متدلية من سقف الغرف, وكانوا يحتفظون في المترل بأحدها .

قام العجوز(صاحب الفيلا) بعـد ذلـك بالمتـاجرة بالآلات القديمة المستعملة,وكان يستعمل الغش بكـل طرقه مع الفلاحين , واستقر في النهاية على تجـــارة آلات الخياطة , ويبقى سؤال كبير , كيف اسـتطاع ابن ذلك العجوز وزوجته ,وبأية واسطة من الوصول للعمل في الشرطة السرية ؟ والأغرب من ذلك قبوله تأجيري إحدى الغرف بواسطة الإعـلان , وكيـف حدث , ولم يطردوني بسرعة؟

شكرا. إنني أتقبل دائما هذا النوع من الاحـترام , إن نكهة اللحم المقدد لها علاقة بنوع الحطب المستعمل , هذا شيء واضح , وكذلك لها علاقة بالتأني والتروي

, خاصة حين يبدأ الدخان بالصعود ! إنني أقوم عادة في الشتاء بصنع ست إلى سبع قطع كبيرة من اللحـــم المدخن , وحسب الظروف , هل تتكلم بجد ؟ تفضل بالتذوق , إنني أشعر بالسعادة . إن أكـــثر النـــاس يحضرون الفطر بالحامض . ولكنني أفضله محمصـــا , وبعد ذلك أسكب عليه بعض الملح , والبهارات .

وبذلك فانك ترى بأن معرفتي بهوبرت فرتياك أتـــت عن طريق ذلك المشنوق , وهكذا بدأت صداقتنـــا , لقد كان يحضر للسنة الأخيرة في الصيدلـــة , وأنـــا بدوري كنت قد خرجت من السجن قبل شهر علـــى الأكثر , بعد قضاء خمسة عشر عاما . استلمت بعدها وظيفة حقيرة , ولكنها تدر مالا لا بأس به . عملـــت مفجرا للصخور في المقالع الصخرية , كان المفجـــر الرسمي في الحقيقة إنسانا آخر تماما , ووافقت علـــى تلك الوظيفة لأنها مربحة .كنت وحيدا في العالم مـــع

أختي . نسيت أن أخبرك بأن والدي توفي في السجن ,وفي نفس السجن الذي قضيت فيه خمسة عشر عاما في فالديتسي , لقد كنا بحاجة ماسة إلى المال , ولقد ساعدني في الحصول على ذلك العمل أحد العبيد من براتيسلافا , والذي خرج من السجن قبلي بنصف عام ,لقد تحملت لوحدي أعباء العمل في التفجير , ولو كان قد حصل أي خطأ لكنت المسؤول الحقيقي , وكنت سألقى العقاب الصارم , ولكان الجميع سيشهدون ضدي بما فيهم المسؤول الرسمي عن التفجير . لقد كنا نقوم بالتفجير على الطريقة الروسية , وذلك يعني بأن المتفجرات كانت توضع في أماكن مختلفة , ولكنها تنفجر جميعها في وقت واحد , وماكان ليحصل لو كانت إحدى العبوات لم تنفجر مع مثيلاتها في نفس الوقت , يمكنك أن تتصور

المصيبة التي يمكنها أن تحدث, وليس من الضـــروري أن أشرح لك أكثر من ذلك عن هذا الموضوع .

لم يكن الصيدلي يتحدث مطلقا عن عائلته , مـــاعدا حديثه عن والدته الحامل , وعن سمعها, وأنا لم أكـــن بالمقابل أسأله عن خصوصياته .

في ذلك المكسر كنت أكسب الكثير من المال بالرغم من الرعب الذي كنت أعيشه , وليومين في الأسبوع , حين نقوم بأعمال التفجير , كنت أخاف أن أقضـي نحبي هناك , ولكني لم أكن أملك حلا آخر, لقد كـان الجميع يتهربون مني , وما عدا ذلك كنت أعيـش في الطبيعة الحقيقية , ولا أرها من خلال بطاقة بريديـة , هل يمكنك أن تتصور ماذا تعني الطبيعـــة لإنســـان خارج بعد خمسة عشر عاما من السجن ؟

يمكنك أن تتصور الأمر على الشكل التالي :

كانت عيوني تمشي في الطبيعة , ورأســـي يــدور في أرجائها, وربما لن تصدقني إن قلت لك أنني كنـــت أشعر, وكما أنني أنظر في لوحة من ورق الجــدران , وبأنني لا أرى طبيعة حقيقية , بل شيئا صناعيـــا , أو صورة ملونة, وهي تدور حول رأسي كثوب نســيج ملون, و ينتابني شعور بأن شيئا ما ينقص هذه الطبيعة ,ولم أكن أدرك طبيعته .إن ما كان ناقصـــا هــو في الحقيقة ما بداخل رأسي .

هل تفهمني؟ ولأكثر من مرة راودني شعور , ,حــين كنت أنظر إلى التــلال والســهول , بــأنني لا أرى الحقيقة , وانما بديلا بلاستيكيا لها , وأن الطبيعـــة لا يمكن لها أن تكون بهذا الجمال , وأن ما أراه لا يزيــد عن كونه وهما , ولا يمت للحقيقة ,وشيئا غير ممكن , وهكذا فاني بدأت أتعود شيئا فشــيئا علــى ذلــك الوهم.

لم أرافق فرتياك إلى حفلات الرقـــص ,الـــتي كـــان يدعوني إليها باستمرار, والتي يهيئ لي فيها صديقـات صديقاته لاصطحابي , وبالرغم من ذلـــك فانـــه لم يتزوج . وحدث بعد ذلك تغير ســريع في حيـــاتي : امرأة .تألمت لجمالها.

قل لي بربك ماذا دهاك يا أدونيسي ؟

سألتني حين كنا نحضر أنفسنا لليلة العشق . وعندمـا أخبرتها بما حل بأدونيس , ارتمت عليــــه.وبــدأت بتقبيله وتقبيل ما تبقى من التجــاعيد في خصيـــتي , اللتين كانتا فارغتين من البيوض , وانهـــالت علـــي بأسئلة لا نهاية لها –كيف حصل لك ذلك ؟

كان بكاؤها طويلا , وشبيها بجنازة الحكومة. بعـــد أسبوعين تقريبا, وحين هدأت الأحوال , وكنا نجلس في المقهى سألتني عن سبب إخفائي حقيقة ما حـــدث معي في السجن حين التقينا للمرة الأولى في الرقصـــة

الأولى– حين أخبرتني , بأنني أرقص بشكل جيـــد , وشبهت رقصي في حينها برقص ليونيداس في قصـــة ورفلوف– خط السيدة الأزرق – لقد أخبرتني بهـذه الطريقة . وأنا من جانبي تصرفت معها كمجـــرم,إذ تركتها تبني أحلاما,و تشعر بأني رجل بالغ وقـــادر, وتركتها تقع في غرامي , وتفقد عقلها في تلك الليلـة , وقالت بأنني سببت لها صدمة عاطفية أبديـــة ! ولم أكن أستطع نكران ذلك.

أما معرفة فرتياك بهذا الأمر, وما حدث لخصيــــتي , فسيبقى بالنسبة لي أمرا غير مفهوم , ولا أســــتطيع معرفة القنوات التي حصل منها على تلك المعلومــة , وكذلك معرفته بأنني حكمـــــت في الخمســينيات بالسجن لمدة ثمانية عشر عاما لخيانتي الوطن . وبتهمة ملفقة من أولها إلى آخرها , وأنه قد افـــرج عـني خلال حكم نوفوتني (أمين عام الحـــزب الشـيوعي

التشيكو سلوفاكي في الستينيات) , بعد مـــا سمـــي بالإصابة . لقد آلمني فضوله أكثر مما قزز نفسي ,كوني علمت بأن اهتمامه الأساسي كـــان ينصـــب علـــى الطريقة التي أفرغوا فيها خصيتي مـــن البيـــوض في سجن فالديتس

كنا نحتسي الخمر سوية في أحد الأيام , ولا أتذكـــر المناسبة بالضبط , ولكنني أتذكر أننا كنا نقف في أحد الخمارات ..خمارة من الدرجة الرابعة على الأكـــثر. كان الضباب يملأ الكون في الخارج , وكان ينظر من النافذة حين سألني :

_قل لي بربك ,هل كنت في أواخر عهدك بالســـجن تحترف الرسم ؟, وهل طلب منك السجان أن ترسمه, و أراد في البداية فحصك , والتأكد مـــن مقدرتـــك على رسم الوجوه , والأشخاص , وكـــان شـــرطه

الأساسي أن ترسمه على قطعة كرتون من تلك الـــتي يستعملوها في تغليف التبغ .

أعترف حين سمعت هذا الكلام من فرتيـــاك , بـــأن شعورا قويا قد راودني بضرورة الانقضاض على رقبته , وخنقه في الحال ,وفي المكان , ولكنني تحليت مـــع ذلك بالصبر, وتحليت بالتالي عن تلـــك الفكـــرة , وسألته فقط عن سر معرفته بتلك الأمور . وكـــان جوابه : لا شيء يمكن إخفاؤه في سلوفاكيا . كـــان يتكلم وفي الوقت ذاته يحافظ على بريقه ولمعانه.

لقد كنت ثملا أكثر مما كنت أظن , لأني بعد ذلـــك لم أتمكن من ضبط نفسي ,وبدأت أصرخ في وجهـــه , وفي الوقت ذاته أطرح عليه سؤالا :

–إلى أين تريد الوصول بحق السماء ,ومن أين جاءت معرفتك بموضوع رســـم الســـجان , وبـــالكرتون المستعمل لهذا الغرض أيضا , وهذا يدل على معرفـــة

أمور أخرى مثل : حادثة خصيتي الفارغتين , وسـألته , وأنا أصرخ :

-هل تريد إعلان ذلك على المـــلأ , و إن كـان اهتمامك منصب على خصيتي , فلا بـــأس , نعــم بيضتي لم تعودا موجودتين , ويمكنك أن تعرف أيضـا بأن قضيبي ضامر , ولم يعد يفيد في شيء , وهنا بـدأ فرتياك بتهدئتي وهو يقول :

-حدثت أمور فظيعة في تلك الأثنـــاء , وسـيفهمها الناس آجلا أو عاجلا.!

بعد برهة , وأنا في خضم سخطي , وعذابي ,انتبـهت لوجود امرأة تجالسنا الطاولة . كانت تقارب فرتيـاك في العمر . ولستِ أدري كيف وصلت إلى الطاولـة ,ولم أنتبه لذلك , وحتى هذه الساعة لا أدري من أين أتت .ربما حدث ذلك في اللحظة التي كنت أصـرخ فيها ولأني كنت ثملا فاني لم أشعر بحضورها . بعـــد

ذلك بقليل قام النادل بطردنا من الخمارة لما أحدثنـاه من شغب وصراخ , وكان الحساب دسما .

بدت المرأة حزينة , باهتة اللون , ومع ذلك كـانت جميلة , وقاربت الساعة الحادية عشره والنصف حين خرجنا إلى الشارع وأصبحنا في الطريق .

عرفت لاحقا بأن الصيدلي , وتلك المرأة , الـتي لا أعرفها مطلقا ,والتي شاركتنا الطاولة في تلك الخمارة المهترئة من الدرجة الرابعة ,أرادا أن يضعـا أمـام أعينهما, ولو للحظة قصيرة إثباتـا , إثباتـا مرئيـا سيساعدهما بشكل حقيقي على فهم ما كانا قـد سمعاه عني سابقا, وعن خصيتي الفارغتين .

خرجنا من الخمارة , وتابعنا السير باتجاه الحديقـة . كانت البراعم على أغصان الأشجار توحي , حـين ينعكس عليها الضوء , وكأنها مصنوعة من الخيـوط الذهبية , وإنني أتذكر هذه الحالة بشـكل دقيـق ,

وذلك بالرغم من سكري , أتذكـــر أنهــا قـــالت :
القصب المزهر . وفي الأيام الأخيرة كنـــــت أحلـــم
بالقصب المزهر, وتماما كما أراه في أطلس الأعشـــاب
الألماني الكبير . استدارت باتجاه فرتياك وقالت:
-هل تعرف بأن القصب يزهر مرة واحدة في حياته ,
وبالضبط قبل أن يموت !
سمعت أحد الرجلين اللذين خرجا خلفنا من الخمـلوة.
ولا يمكن القول بأنهما ليسا من الشـــرطة الســـرية ,
يبدي ملاحظة ويقول :يجب على الصيادين المدخنـــين
أن يغسلوا أيديهم من النيكوتين قبل تثبيت الطعم
وهل يمكن لأحد أن ينسى ذلك , وهل يمكنـــك أن
تجد هنا صيادا حقيقيا ؟ اقتربنا من ضوء المصبـــاح ,
ولكي يصبح للفيلم نهاية كما يقال , حللت ســحاب
سروالي , وكان الرجلان ذوي المعـــاطف الجلديـــة
يدوران حولنا , وأخرجت بطلي الذي يعمل بـــدون

محرك , والذي لم يكن منذ الشتاء صالحا للرؤيـــة , وخلفه ظهر جيب خصيتي _متجعدا –لا شكل لــه–

.

–إيفا , وهكذا كان فرتياك يناديـــها , أدارت ––
وجهها مشمئزة من رؤيته .

–ماذا تفعل ؟ سألني أحدهم بصوت مســـموع . -
أجبته بكل هدوء :

أنتم من فعل ذلك , وأدرت مقدمتي .في تلك اللحظة اقتربت إيفا من الرجل الذي كان يقـــف بجانبـــها , وصفعته بقوة على وجهه , بينما تحرك الثاني باتجاهها, ورماها أرضا ,وبدأ يضربها بكـــاحل قدمــــه بعنـــف ,وقسوة واضحتيين. اقترب فرتياك مــــــن الثـــاني , ووشوشه شيا غير مسموعا . هرب الاثنان على أثـــر ذلك الحديث إلى الحديقة القريبة متواريين عن نظرنا . منذ تلك اللحظة اعتبرت فرتياك رجل أمن , ســـوي,

أو مخبرا يعمل لصالح الأمن , وإلا كيــــف علـــى أن أشرح هروبهما بعد أن تحدث فرتياك إلى أحدهمــــا . لماذا هربا بعد وشوشته في أذن أحدهمـــا , أو علـــى الأصح تأكدت من ذلك , تأكدت بأن فرتياك رجـل أمن ,وذلك منذ اللحظة التي أثار فيــها موضــوع رسم السجان في الحانة .

أتذكر أيضا , بأن إيفا وبشكل غير مقصود , وعفوي قد عضت بأسنانها على شفتيها , وسال الدم علـــى لفحتها الصوفية .ومعطفها , ولا أستطيع أو أتجـــرأ وصف شكل وجهها في تلك اللحظة , علما بأنني قد شاهدت وجها مشابها , كانت تملك شيئا في وجهــها يذكرني بوجه رجل روسي كان يحتضر , حين ســقط على الأرض بعد شربه كل ما تبقى من الكحــول في الزجاجة . الكحول الذي كان في الأصل معدا لحفظ

الثعابين , وليس لشرب البشر . لقد كان متحـــف الطبيعة أيام الحرب منقولا إلى أحد المخـــابئ تحـــت الأرض . حيث كنا قابعين هناك بانتظار نهاية الغارات الجوية.و كان الكحول يحتوي على الأكثر كمية مـــن المواد الحافظة.

لقد عرضت عليكم ما كنتم تريـــدون رؤيتـــه مـــن جسدي .قلت ذلك ,وأنا أحاول رفـــع إيفـــا عـــن الأرض , وراودني شعور كبير بأنني قد بدأت أفقـــد توازني حين ضمني فوتياك إلى صـــدره, وعـــانقني , وسألها , إن كانت تشعر بألم في مكان ما . ولكنـــها لم تجبه , واكتفت بتحريك رأسها نافيـــة أي شـــيء , وبدأت تكز أسنانها الأمامية , كانت ضعيفـــة , ولا تستطيع الانتصاب على قدميها , ركضت مســـرعا لطلب سيارة الإسعاف .

لقد فارقت الحياة في المستشفى بسبب نزيف داخلي تلقت ضربات عنيفة من قدم رجل الأمن في بطنها , مما سبب لها نزفا شديدا , وتمزقت كليتها وطحالها . لقد أصيب القصب المزهر . لم أحضر الجنازة . افترقت بعدها عن فرتياك لسنين عدة .

انتقلت بعد ذلك إلى محافظة وسط سلوفاكيا , وفي أحد الأيام ,وبينما كنت أبحث عن دواء لأختي المريضة في صيدليات المدينة.وقمت بالبحث في جميعها كبيرها وصغيرها .التقيت بفرتياك مرة أخرى , وطبعا فانه ساعدني , وأحضر لي الدواء الذي كنت أبحث عنه.منذ ذلك الوقت توجد بيننا علاقة احترام متبادل ,وقريبة من الصداقة الصادقة.نتبادل البطاقات بشكل منتظم في المناسبات والأعياد ,انه رجل عظيم , إلا أن فضوله أكبر من صدقه.وحتى هذه اللحظة لا أستطيع الجزم بأنه يعمل , أولا يعمل لحساب البوليس , وهل

يتعارض حديثي عنه الآن عما كنت قد حدثتك عنـــه في السـابق ؟ ربما . لا.لقد انتهينا من فرتياك.

إنني أفهم , وأقدر بأن قصصي مع فرتيـــاك ربمـــا لا قمك أليس كذلك؟ ألا أقول الحقيقة؟ حسنا .ولكننا لا نستطيع في المستقبل أن نهمله . لا تنسى ذلك.

ننحدر وأخي في الأصل من عائلة شديدة الفقـــــر , ولست أدري إن كان قد أخبرك فرتياك بذلك , كان والدي عاملا عاديا في السكك الحديدية ولســـنوات طويلة.ولا أرى إن كان من المفروض أن أخبرك بأنـــه كان عضوا قديما في الحزب الشيوعي , وبعد فـــبراير أصبح رئيسا للمنظمة الحزبية. وفي بداية عام ١٩٥٠ , بدأ يشكو من الأوضـــاع السياســـية . والحياتيـــة السائدة , ولم يعد يعجبه شيء علـــــى الاطـــلاق , وانعكس ذلك على حياته في البيت أيضا , وربما كان

مزاجه قد تعكر قبل ذلك بكثير , ولكنه حتى ذلـــك الوقت بقي صامتا , غارقا في التفكير .

أحدهم , وربما كان مدير محطة القطار , اقترح إجراء حفلة رقص في أحد أيام العيد في شباط . وهذا أمـــر عادي , ولكنه بالنسبة لوالدي لم يكن أمرا عاديـــا , ولم تكن لديه أية رغبة في الاحتفال , ولكنهم ناقشوه ,وأقنعوه بالحضور لأنه رئيس للفرقة الحزبية .كـــانت لجنة التنظيم قد وضعت شعارا يقول:من الضروري الحضور بلباس اجتماعي (رسمي) . ولم يكن قد مضى على انتصار الشيوعيين سوى سنتين , وكانت هـــذه العبارة تفوح بالتفكير الرأسمالي , والبرجوازي ,ومـع ذلك شاركت العائلة بكاملها في الحفلة بلباس رسمـي , واستخدم والدي لباس السموكنغ , وكما كــــان بالضبط يلبس الرفيق كوتوالد (أمين عام الحـــزب في

حينه) إضافة للقميص الأبيض المنشى , وربطة العنـق التي تسمى بالفراشة .

كنا نملك في منزلنا الجديد الذي انتقلنا إليـه مدفـأة جداريه تعمل بشكل جيد , حيث لا رائحة للدخان , و الجدران تلمع كالمرآة باللون الأبيض ,ومن جانبنـا قمنا بتحضير والدنا لتلك المناسبة , لقد كانت ثيابـه على مقاسه تماما , وصفوف الأزرار المتوازية مشـابهة لمظهر ثياب الرفيق كوتوالد أيضا , باختصـار بـدا والدي رائعا في لباسه السموكنغ , ماعدا يده الثخينة الخشنة ,والتي لم تكن تناسب ربطة العنق . و تظـهر كانتفاخ في شجرة .

حين دخل قاعة الاحتفال لقي تصفيقا , وترحيبا من الجميع .كان الحاضرون يرددون شعارات, وهتافـات من نوع عاش الحزب الشيوعي التشيكوسـلوفاكي , وهتافات أخرى . بدأت المشكلة , حين سمع والـدي

هتافات أخرى مثل عاش الرفيق اوستاروك! ستالين , كوتوالد ,شيروكي ... والى الأبد ! , وكان مفروضا عليه أن يتكلم في حفلة الافتتاح نظرا لمركزه الحزبي

.

بدأ كلمته محذرا, وقال : في الماضي القريب كانت الاحتفالات للسادة فقط , وكان والدي يحفظ خطابه عن ظهر قلب , وكانت أختي في الثانوية قد قامت بتحضيره , مستعينة ببعض المقالات من الصحف والمجلات .. إلى هنا بدا كل شيء على ما يرام , إلا أن الحاضرين كانوا يعرفون نقاط ضعفه , وخاصة ولعه الشديد في احتساء الخمر المعد في البيوت , وهو عادة من النوع الثقيل , لذلك أحضروا له من بيوتهم خمرا مصنوعا من الخوخ (سليفوفيتسا) , وهكذا انفكت عقدة لسانه بعد عدة جرعات . كنت أراقبه طوال الوقت , ولكني لم أتمكن من السيطرة

على سلوكه , وكلامه , وبعد منتصف الليـــل بـــدأ بالكلام الخطير من العيار الثقيل , وبـــدأ بـــالتلميح بشكل سلبي إلى الأوضاع , منتقدا تصرفات بعـــض أعضاء منظمة الحزب , ولكنه بعد ذلك , وبصـــوت عال, ومسموع لم يوفر أحدا منهم , وكأســـا وراء كأس . التف الناس من حوله , وظهر . وكأنه يقلـــد جارنا الذي كان ممثلا في المسرح , وبأعلى صوتـــه قال للجميع : بأن الطبقة العاملة التي قضى حياتـــه مدافعا عنها, وعن مبادئها , ينتظرها مستقبل مظلم , وفي غاية الصعوبة , انحنى أمام الناس , وبدا, وكأنـــه يريد القفز في الماء , ضرب الباب بقبضة يده بكـــل قوته . ساد السكون في الصالة . وتابع حديثه قائلا : لم يعد أحد يتقن عمله , وحتى أنهم لم يعودوا يخيطـون القمصان بشكل صحيح , وكان في أثناء حديثه يحـل أزرار قميصه العلوية , ويعود ليعقدها ثانية , ويـردد

قوله , بأنه يشعر بأن قبة القميص تخنق كلامه . خلـع بعد ذلك فراشته , والتم الحاضرون من حوله بمـــن فيهم أعضاء الفرقة الموسيقية , وأتذكـــــر عـــازف السكسافون الذي جلس قبالتـــه , وكـــانت آلتـــه الموسيقية محمولة على كتفه , وكما البندقية .حـــلول بعض أصدقائه الأوفياء منعه من متابعة الشـــراب ,و قاموا بإخفاء الزجاجة , وفي الحال ظهرت زجاجـــات أخرى . وقف والدي على الكرسي , منكوش الشعر , وقال :إن منع الكتب المعادية للحزب من التـداول بين الناس لأمر غير صحيح , ومن كان منا ذا عقيدة صحيحة , وراسخة فان مثل هذه المطبوعات لن تؤثر فيه , ويمكنه بسرعة كشف المحرفين , والأعداء مـــن أمثال بوخارين, كامينيف , وتروتسكي , ويكفـــــي لذلك أن يكون الرفيق يملك حس الإنسان الشـيوعي , وأكد على أنه لو كان يملك الســـلطة , والقـــرار

لسمح فورا بطباعة مؤلفات بوخارين وكــــامينيف, وزينوفيف, وغيرهم من المحرفين والمنشقين , وأنــــه متأكد من أن هؤلاء لن يتمكنوا بكتاباتهم من التأثير, وإضعاف الإنسان الشيوعي , وقال أيضا بأنه يعرف أناسا يمكنهم مساعدته في طبـــع تلـــك المؤلفـــات وتوزيعها ـ وليته لم ينطق بتلك العبـــارة الأخـــيرة , كون الناس يعرفون بأني كنـــــت أدرس الطباعـــة , وكنت المقصود بعبارته عن المساعدة - كما أضـــاف بأن الطبقة العاملة يمكنها بحســـها الطبقـــي معرفـــة الأفكار الخاطئة ونبذها . وأكد بأن المسيح كـــان في الأصل عاملا , ومن أصول عمالية . ولو أنه قبـــل تسعمائة عام كان قد حظي بتأييد العمال لكان الأمـر مختلفا الآن .وهنا صرخ أحـــد الحـــاضرين بشـــكل استهزائي : إننا نسمع كلاما هاما أيها الرفيق !

بدأ الحاضرون في الطابق العلوي بالهيجان , والصفير , ولم يتمكن أحد من سحب والدي من القاعة , وكأنما قوة خفية لبسته, وسيطرت عليه . ركضت والدتي أمامه . وفكشت كاحل قدمها , وعرفت في الحال بأن مصيبة كبيرة تنتظرنا . شربت بعد ذلك بدوري حتى الثمالة , ولا أعرف بالضبط كيف انتهت الحفلة , ومتى , وكيف وصلت إلى المنزل . في اليوم التالي تم القبض على والدي , وبدوري أودعت السجن بعده بأيام قليلة , وكانت تهمتي الأساسية كوني سأساعد في طبع, وإصدار المؤلفات الممنوعة للمحرفين السوفييت.

أرجوك يا سيد كليمنتيني , لا تظن بأنني أريد رمي حبات اللوبيا على الحائط, أو أنني أريد تشويه حقيقة فالديتس (السجن) , أو الدائرة الثالثة التي لم تعد موجودة . ربما هناك شيء واحد لم أذكره لك عن

السجن وبشاعته : إن كان أحدهم قـــد قضـــى في السيلول تحت الأرض ثلاثمائة يوم , وان كان قـــد تحمل هذه الإقامة , وربما ثلاثمائة يوم في الســيلول لا تعني لك شيئا , أما بالنسبة لي فإنها تعني الكثير .

في اليوم الذي أحتفل فيه عادة بعيد اسمـــي (يـوم اوندراي) حضر خفير جديد , وكان يدعى فنيكـــل .ورأيته حين استلم حراسته , ولا أدري ما أحدثـــتْ نظراتي العفوية من تأثير عليه , ولكني لاحظت بريـق عينيه الشبيه برقصة العت الذي يـــأكل الثيـاب , وقرأت في عيونه رغبته الكاملة في قتلي في المكـان إن أمكنه ذلك مباشرة من اليوم الأول لحضوره , كــان دائم الصراخ في وجهي , وكوني كنت أضحك أمـلم عيونه –سألت رئيس الحراس مرة : وكيـــف لي أن أضحك أمامه ,أجابني بأن فنيكل يشعر من نظــراتي بأنني أستهزئ به .

وقبل انتهاء محكوميتي , وبالرغم من أنـــني كنـــت مصنفاً بين المساجين المهذبين , استطاع المفتـــش أن يلفق لي تهمة جديدة ,أودعت على أثرها مرة أخرى في السيلول لمدة مائة يوم , وكانت هناك تعليمـــات تتعلق بالسيلول , مفادها بأن السجين يمكن أن يبقـــى هناك ستين يومًا على الأكثر بدون تنفس , وبعـــد قضاء تلك المدة يتم نقله إلى الطابق العلوي , حيـــث يمكنه بعد ذلك من الخـــروج ,والتنفـــس في باحـــة السجن , ومن ثم يعود لاكمال بقية المائـــة يـــوم في الانفرادي .ومن المتعارف عليه أيضا بـــأن ســـجين السيلول يحظر عليه الاستلقاء على الأرض , وعليـــه أن يبقى واقفاً طوال اليوم , وكان جرس الاســـتيقاظ من النوم يدق قبل الرابعة صباحا. كـــانت العفونـــة والروائح الكريهة , والماء المتسرب من الجـــدران إلى جانب إطلالة الجرذان من فوهات المرحاض ,كلـــها

أمورا من طبيعة ولوازم الحياة ومسلماتها في السجن الانفرادي . كان النوم في النهار من الممنوعــــات , وحصوله يعني بأنك ستضرب حتى العظم , وهـــذه الأمور معروفة للجميع .وأما الأسوا فقد أتـــى بعـــد ذلك .

لم أكن أعرف بأن ذلك الحارس الجديـــد , والـــذي تسبب في وضعي في السيلول شاذّ جنسيا , وأسوأ ما في الأمر , كان يحدث مرتين في الأسبوع , وأحيانـــا مرة واحدة

اقتحم السيلول شاذّ آخر ,مراقب . سجان يلبـــس ثياب البوليس , كان ممتلئ الجسم , شـــبيها ببغـــلٍ معلوفٍ ,قوياً , خبيراً في جس الأعضاء . هجم بكـــل وحشيةٍ على مؤخرتي مشرعاً قضيبهُ المنتصب , وحتى الآن لا أجد تفسيراً لما حدث معي , وربما كان جسم الإنسان يبقى محتفظاً بقوانينه , وثقافتـــهِ الخاصـــة ,

وذلك حتى في أصعبِ الأوقات وأشـــدّها مـــرارة , وبالتالي ليس لها أية علاقة بما يفكّر فيه دماغنا في تلك اللحظة , وليس من الضروري أن يلـــتزم جســـمنا بأوامر دماغنا , حيث أن ذلك الشاذ لم يتمكن مـــن الوصول الى شرجي بكل ما أوتيَ من براعةِ , وحرفية , وربما كان ذلك عائداً لضيق المكان , أو شيءٍ غير ذلك ذي علاقة بتكوينه , وتكويني , وكان تصرفـه شبيهاً بتصرف رجالٍ يحملون جذع شجرةٍ كبـيرة , ويريدونُ بها فتح بوابـة ذات در فتـين خشـبيتينِ كبيرتينِ , وأنا بدأت أتخيلُ , وأستعيدُ ذكرى وجـوه صديقاتي , وأجساد هن ,تلك الصديقات اللـــواتي كانت تربطني بهن علاقة غرامية .ولكنني لم أتحمـــل في أحد الأيام هجومه , وحتى هذا اليوم لا أتذكر مـا اقترفتهُ في تلك اللحظة من ذنب , وباختصار لم ينفتح شرجي أمامَ سطوةِ قضيبهْ , وربما ارتكبتُ شـيئاً في

حق ذلك الشاذ , ولم أتمكنْ من السيطرة على نفسـي , وجدت نفسي بعدها مستيقظا في مصح للأمـراض العقلية في براغ .في البناء السابع عشر , ولم يصدقـني أحد من الأطباء بأنني هنا لسبب عدم انفتاح شـوجي في وجه ذلك القضيب المستبد للسجان الشاذ .كانوا يتعاملون معي , وكأنني أخرف وأتخيل , لقد فقدت خصيتيّ في ذلك الصراع الجنوني مع ذلك الشاذ , ولم أستطع شرح السبب الحقيقي للأطبـاء العـاملين في المصح , وكيف حدث لي ذلك , وبالتالي فـاهم لم يجاوبوني على أسئلتي ولم يخبروني بأي شيء.

لقد أردت يا سيد كليمنتيني أن أشرح لك بـالتفصيل مـا جـرى معـي .

أخيرا حين أعادوا الاعتبار لأبي . كانت أختي في أشد حالات الفقر , ولكن لماذا؟

-أظن أنك تعرف السبب .لقد سلمونا تعويضاً مالياً عن موته , وكما أنني استلمتُ أيضا بعضه كتعويض عن سجني , وقررنا , وعلى الأصح , إن أختي قررت بأنني سأكون صالحا لدراسة الحقوق , وكنت في ذلك الوقت لا أعمل في الطباعة , أوفي تكسير الحجارة , أو في مصلحة المياه.

بعد ذلك بسنوات شهدت أمراً فاق جميع توقعاتي , وأدهشني أيضا .وحدث ذلك يوم تخرجي من الجامعة .كنت جالساً مع أختي في إحدى المقاهي وبجانبنا وردتان , أو ثلاثة وردات ,وضعناهما على الكرسي الثالث بجانب الطاولة , وفجأة , وبدون أي استئذان يحمل أحدهم , كرسياً من الطاولة المقابلة لنا, ويضعه بجانبي , وكما أنه يعرفني منذ زمن طويل , ولم يكلف نفسه عناء سؤالنا إن كان باستطاعته مشاركتنا الطاولة . كان رجلاً كبيراً في

السن . سألته أولا عن سبب اختيـــاره لطاولتنـــا, وكنت متزعجاً من تصرفه . ولكنه لم يأبه لكلامـــي, ولم يعر سؤالي أي اهتمام , وتصَرف, وكأنه سمع نكتة عابرة , و زادت دهشتي حين رأيته يتحـــدث مـــع مارينكا (أختي) وسماها باسمـــها , وحـــين أظـــهرت دهشتي من تصرفه هنأني بالنجاح , وبحصولي علـــى الشهادة , وبدأ في طلب المشروب . وبعـــد مـــدة قصيرة عرفت من كلامه بأن حضوره يأتي من معرفته ,واحترامه الشديد لوالدي ,و عرفت أيضـــا بأنـــه يشغل منصب سكرتير اللجنة المنطقيـــة للحـــزب . سألني إن كنت أرى في الأفق القريب بوادر عمل مـــا , أجبته : بأن لا شيء ينتظرني . نظر إلي كسمســـار سيارات مستعملةٍ , وقال : سمعت بـــأنهم خرّبـــوا خصيتيكَ في السجن ,وكان ذلك كافيـــاً لمارينكـــا لترتجف , وتجهش بالبكاء , وكان بكاؤها من النـــوع

الذي هزّها , وهز معها الطاولة التي كانت تمسك بها . سألته بدوري مستغرباً عن معرفته بيوم تخرجـــي . أجابني بنفس الطريقة التي أجابني فيها فوتياك حـــين سألته عن سر معرفته بما حل بآلتي السفلية قـــائلا :
-أن معرفة تلك الأمور لها قنواتها الخاصـــة . تـــورد وجهه , وتابع حديثه على النحو التالي : إننا نعـــرف بأنك ُسجنت بسبب والدك , ولكن لا بـــأس , إن الحزب يستطيع , ويريدُ إصلاح أخطائه , وليس من المهم أنك أمضيت وقتا طويلا في السجن , الشـــيء الهام – اقترب مني وقبض على يدي– هو أنك مـــن دم بروليتاري ! دم طبقي – هاتـــان الكلمتـــان لا أنساهما ما بقيت حيا. ولن ينسى الحزب ذلك . انك رجل ناضج , وان لم تكن منتسباً إلى الحزب حـــتى الآن , سوف يحصل ذلك في الوقت المناسب.
قام في ذلك اليوم باصطحابي, وأختي إلى أحد الفنادق

القريبة , وبيده الثخينة قام بكتابة طلب توظيفي على الآلة الكاتبة في مكتب الإحصاء التابع لوزارة الداخلية , وأحسست بأنني سوف أنفجر من احتباسي للضحك , حين كنت أسمعه يردد بصوت مرتفعٍ الصيغة التي كان يكتب فيها الطلب . حصلت على الوظيفة ,وعلى عكس كل التوقعات , بالإضافة لراتب جيد , وإنني ما أزال في هذه الوظيفة حتى الآن. وتقوم أختي بزيارتي أحيانا , فهي تقطن على بعد تسعين كيلومترا من منطقتي , وغالباً ما تمونني ببعض المعلبات المترلية من الخضار والفواكه .

بعد مدة بسيطة علمت بطرقي الخاصة , بأن ذلك الرجل الكريم كان قد شهد في المحكمة ضد والدي المرحوم , وعرفتُ في الوقت ذاته بأنه الوحيد الذي حافظ على نقاوتهِ من بين عشرات الحالات المؤسفة , ولهذا كوفئ بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي

السوفيتي , وأصبح بدون أي منازع , أقوى رجل في الحزب في منطقة وسط سلوفاكيا.

نظر ريجنت في عيوني .ولا أستطيع وصف هدوئه, وحضوره الاحتفالي بشكل دقيق , ولكنني لاحظت مع ذلك تجعد وبر جلده .

لا تتعجل سيد كليمنتيني , سوف نأتي على جميع المواضيع , إنني لا أسرق وقتك , إن قضيتك , وقضية عائلتك لم تكن صاخبة , وهي في الأصل محض تزوير, وخداع , وإن لم تكن قد وصلت إلى مستوى القضايا الكبيرة في بلادنا . إنني أعرف هذه القضية بشكل جيد , واطلعت على وثائقها وحيثياها .انك تبحث عن أمر ما, ولكن عليك -إن أردت معرفة المزيد عن قضية عائلتك -أن تعرف ما جرى للآخرين أيضا . وان كنت تظن بأنك تضيع وقتك معي , وانه بالإمكان تخطيط كل شيء بشكل مسبق

, وكما أنك تتحضر لبناء منزل , أو لولادة مولـــود جديد , أو إجازة في المكسيك , فانك على خطــــأ. ولهذا أمامك خياران , إما أن تشرب معي الخمـــر , أو أنـــــــني ســــــــوف أغـــــــــادر . حسنا ؟ فلنبدأ .بصحتـــــك .شـــكرا. وبصحـــتي . وبذلك فان السيد فرتياك حضر لزيــــارتي في المـــرة الأولى , والمرة ثانية, وفي المرة الثالثة أفصح بما لديــه .-أندري (سألني فرتياك): ألا تعرف بالصدفة شـيئا عن القضية المتعلقة بالســـطو علـــى أحـــد معـــامل الطائرات ؟ حين قام بعض المحترفين من أعضاء الحرس الوطني بالتخطيط لها, وكان ذلك في منتصف عــــام ثمانية وأربعين , حيث أنهم ,أي المجموعــــة فاجـــأت الحرس الليلـــــي, مشـــهرين ســـلاحهم , وقـــاموا باحتجازهم , وقاموا بعدها بالسطو على البيانـــات , والمستندات الموجودة في المعمل . وحملوها فارين مـــع

قطع التبديل الضرورية لمحركات الطائرات , وباختصار شديد فان المستندات قد اختفت , واختفى معها المهاجمون وبدا الأمر, وكأنه حكاية خرافية . تعطل الهاتف في ليلتها , وبدأت التحقيقات , واستمرت ما يقارب السنة والنصف . على أثر ذلك قاموا باعتقال والدك , وذلك في الوقت الذي تم فيه اعتقال سلانسكي (رئيس الوزراء) . هذا ما سألني عنه فرتياك , وتذكرت هذه الحادثة مباشرة حين سمعت روايته لها , وتذكرت بأنني على اطلاع تام على مستنداها , وتابع فرتياك حديثه قائلا , بأن والد أحد أصدقائه (يعنيك أنت) وهو السيد كليمنتيني قد حكم عليه بالموت لكونه كان مديرا للمعمل , و مسؤولا عنه بعد التأميم .وبعد ذلك بوقت قصير أعدمت زوجته (أي والدتك), وقام فرتياك بسؤالي : هل يمكنك مساعدة

ابنه , ابن ذلك المهندس كليمنتيني ؟ مضيفا بأن ذلك الشاب هو صديقه—وهو يعنيك أنت—وبأنه متـــأكد مئة في المئه بأن الحادثة بكاملها ملفقة. حيث أن رجلا غير معروف من جماعة نوسك (وزيـــر الداخليـــة في ذلك الوقت), وقف في المحاكمة وشهد ضد والـــده , وقال بأنه ,و بسبب غضه النظر عن الحادثة تســـــلم رشوة تعادل تسعين ألف دولارا أمريكيـــا, وبـــأنهم وجدوا تلك الدولارات مخبأة في أحــــد الدواليـــب الاحتياطية في كراج منزله , أي في كــــراج مـــنزل والدك السيد كليمنتيني . وبأنه —أي أنت —تعـــرف بأن والدك لم يستلم أية دولارات , وأن الموضــــوع محض تلفيق وكذب . وبدون فائدة حـــاول والـــدك دحض الادعاء في المحكمة ,مؤكدا بأن لا علم له بأي دولاب احتياطي . شهد الجميع بما فيــــهم جـــاره, وخادمة المنزل , وبعد حفلة تعذيب والدتك أيضـــا .

شهدوا جميعا بأن الدولاب الاحتياطي كان في الكراج

.

اتهم والدك بداية بالاتصال مع المخابرات الأمريكيـــة, وبأنه ساعد في نشوء الدولة اليهودية . وذلك بالرغم من أن والدك لم يكن يهوديا , ووالدتــــك لم تكـــن كذلك . وضعت الدولارات على طاولة المحكمـــة في اليوم الذي نطق الحاكم فيه بالحكم . وشاهد النــــاس هذه المحكمة , وكان الدولاب موجودا على طاولــــة المحكمة أيضا.

وهؤلاء الذين سطوا على المعمل كانوا من عمـــــلاء الدولة الرأسمالية اليهودية , ومن هناك ساعد والدك , الســـيد كليمنتيـــني في ترحيـــل المســـــــروقات . هل ترى بأنني على معرفة جيدة بالموضوع , وأتذكره جيدا , ولكننا لن نتمكن من مناقشته , إن لم تتعـــرف على مواضيع أخرى , لنقارنها مع موضوع والـــدك ,

ومع مواضيع أخرى , وأحداث لا يمكن تصديقـها , وفهمها , وبالتالي علينا تصنيف حادثـــة والـــدك في سياق الأحداث المجنونـــة لتلـــك الدولـــة الظالمـــة.

إنني لا أستغرب يا سيد كليمنتيني بأن أحدا لا يمكنـــه الوصول الآن إلى مستندات قضية والدك , إن كـــان في براغ أو براتيسلافا . يكفي الآن ما تحدثنا بـــــه , لندخل في التفاصيل.

كنت قد أمضيت وقتا طويلا هنا في عملي , حـــــين تعرفت إلى عقيد في البوليس الحكومي , ووعـــــدت بأنني لن أتلفظ باسمه أبدا .على كل حال فان الاســـم لا يهم الآن , خاصة , وأن هذا العقيد قد لقي وجـــه ربه , وأصبح في طي النسيان , وعرفت في حينها أنـــه مسؤول هام, وكبير في الشرطة السرية , وسمعـــــت أيضا بأنه , وبعد إعدام كليمنتيسا (أحد أعضاء قيادة الحزب الشيوعي السريين إبان الحرب العالمية الثانيـــة)

، قد أرسل بسرعة من براغ إلى براتيسلافا , وكـــان ضابطا شابا , ومن براتيسلافا أرسلوه إلى هنا , وربما كان يعرف عني شيئا ما , وان لم يكن ذلك صحيحـا , إلا أنه كان يعرف شيئا عن والدي , وعن كونـــه قد مات في سجن فالديتسي , وكان يعرف أيضا ماذا حل بوالدتي , وكيف كانوا يتصرفون مع أختي ,لحين إعادة الاعتبار لوالدي ., ويعرف عن طلبي للوظيفــة هنا في الأرشيف . لقد كان توقيعـــه هـــو الأخـــير, والنهائي , إما نعم أولا.

كان العقيد ينتظر تنفيذ المهمة في سيارته, التي أوقفها السائق في مدخل البناء . تخرج المستندات المطلوب إخفاؤها من السيارة وتنقـــل إلى الطـــابق العلـــوي ــالحماية واقفة ويدها على الزناد– لقد كان موجودا في كل نقلة , وعندما ينتهون من نقلها , يتم تفتيشها مرة أخرى قبل أن توضع في الصنـــــاديق الحديديـــة

ويغلق عليها , وبعد ذلك يضع العقيد ختمه عليـــها. ودعني العقيد بعد انتهاء المهمة ولم أعد أراه بعد ذلك , وهذا الأمر كان يتكرر علي نفس المنـــوال لعـــدة سنوات , لقد بدأ عمله هنا برتبة بســيطة وانتـــهى كعقيد , وبقي في رتبته لحين وفاته.

في أحد الأيام حدث مايلي : تعطل محرك سيارته , في اللحظة التي كانوا يصعدون بها إلى السيارات بعـــــد انتهاء مهمتهم , وعمل كـــل منــهم مــا بوســعه لاصلاحها , بما فيهم سائق القصر – في تلك الأثنـاء كنت مسؤولا عن المتحف– وكنت مسؤولا ليــلا , ونهارا عن الأرشيف , ربما لا تصدقني : كان يكفــي هـــاتف واحـــد ليحـــــدث اســـــتنفارا –يا رفيق ننبهك بحدوث كذا,وكذا , وكان ذلـــك كافيا لإنارة كافة المصابيح الموجودة في البناء – فمثلا ,بدأت الأزمة في أفغانستان , وهنا في الجبال بعيـــدا

عن أفغانستان كان كل شيء يضيء مثل النـــهار , ولمرتين في تلك الليلة كان علي , وبيدي مسدسي أن أفتش جميع القاعات التي كان فيها الأرشيف, والـتي كنت قد أغلقتها بيدي قبل ساعات , كان الجميـــع بانتظار حدث مفاجئ . باختصار شديد لقد انتــهينا عند الحديث عن سيارة العقيد المعطلة , لقــد كـــان موتور سيارة العقيد أحد المشكلات , لكن المشــكلة الأساسية كانت في مكان آخر : لقـــــد انكســـرت إحدى القطع –لم أكن في حيـــاتي أفـــهم موضـــوع السيارات وأعطالها– ولهذا لا أستطيع تسمية القطعـة المكسورة , لقد ذهبت محاولات سائقي , ومعرفته في إصلاح الأعطال أدراج الرياح , وكان أقرب مركز لاصلاح السيارات يبعد ما يقارب الستين كيلومـــترا عن منطقتنا . أخيرا استطعت تأمين سيارة لجرهـــا إلى إحدى الورشات ليتم إصلاحها . وهكذا بقي العقيد

هنا معي في تلك الليلة , ولا أتذكر بالضبط موضوع نقاشنا , وتفاصيله , ولكنني أتذكر بـــأن العقيـــد في النهاية طلب مني أن أرافقه في زيارة للقصر ,وكـــانت بالنسبة له مناسبة ليتعرف على المكان بشكل أفضـــل لأن وقته في الأيام العادية لا يسمح لـــــه بذلـــك .

إنني أتفهمك يا سيد كليمنتيني , وأعرف أن وقتـــك ضيقا , ولكن الوقت له وقته الذي علينا الالتزام به .

اسمع يا اوندري –هكذا بدأ العقيد حديثه معي , حين كنـــــــا نتمشـــــــــى في القصـــــــــــر .

–إنني أعرف أن جمعيتكم تربي السلمون (نوع فاخر من الأسماك النهرية) , وسوف أعود يوما ما لأخـــــذ بعضها . أنني أعشق السلمون و أتلـــذذ بنكهتـــه , وبعدها يمكننا أن نجد الوقت الكافي للتحدث بشـــكل مفصل عن موضوعات مختلفة , وهامة . بدأ يتحـدث معي بلغة المفرد , وطلب مني أن أبادله الكلام بنفـــس

الطريقة , كان يسير ببطء شديد . ويتمعن بشـــكل دقيق في الحيوانات المحنطة , والتي حشـــيت بطونهـــا بالقطن لملء الفراغ الحاصل بعد تفريغها من أحشائها للحفاظ على شكلها الخارجي , كان يقف أمام كـل حيوان , ويهز رأسه أمامه بشكل غير معتاد , وفجـأة , وبدون أن أتوقع أدار رأسه نحوي , وألقـــى علـــي نظرة حادة , وفي الحال عرفت بأنه مـــن المســـتحيل على إنسان غريب أن يحرك له عينيه من مكانهما , إلا إذا أراد ذلـــك طواعيـــة . و ســـــألني :

-لماذا تحشون بطون تلك الحيوانات . ياله من أمـــر محزن ... الحشو , واقترب مني , ووشوشني قـــائلا: وكيف هم أولئك الحيوانات في الحزب الشـــيوعي , والذين يحشون بطونهم مثل تلك الحيوانات , وهـــم متخمون ,و لا يتحركون ؟ لقد امتـــلأت بطونهـــم بالحزب والدولة . حين سمعت كلامـــه تجمـــدت في

مكاني , وانعقد لساني ولم أنبس بكلمـــة واحــدة , وشعرت بالخوف , والرعب يسيطران علـــي مـــن كلامه , الذي لم أكن أتوقعه من رجل مسؤول أمـــني في الدولة , والتي يقوم بخدمتها منذ زمن طويل . يـــا إلهي ماذا أسمع ؟ .وانتابني إحساس كبير بـــأن هـــذا العقيد يحاول تحريضـــــي علـــى الكــلام المحـــرم , ويستدرجني فيه إلى آخرتي المحتومة , واحتجت لوقت طويل كي أعرف , بـــأن هـــذا العقيـــد لا يؤمـــن بالشيوعية ونظامـــها . بعدهـــا بـــدأ يعـــترف لي :

-كنت شيوعيا , كما كان والدك , ولا يمكنـــك أن تتصور كيف استطعت مع عائلتي السفر إلى فرنســد . لقد نسينا طعم الخبز الحقيقي , شربنا الماء الصـــدئ, كنا قد ذهبنا كعمال موسميين حين انفجرت الحـــرب العالمية الثانية . أعادونا إلى بلادنا سيرا على الأقـــدام وبقي والدي بعض الوقت في السجن . أظن أنـــك لا

تعلم , بأنني بدأت حياتي العملية في قسم الجرائـــم , كنت هاويا لذلك العمل من جميع جوانبه , بعدهـــا نسبوني للحزب , لأني ابن شيوعي قديم , شيوعي من أولئك الذين عملوا في تنقية الإســـفلت للرفيــق شيروكي (سكرتير الحزب الشيوعي السلوفاكي إبان الحرب) . هكذا كان الوضع . وفي أثناء عملـــي في قسم الجرائم تعلمت قراءة أفكار الناس من عيونهـم . واستطعت كشف العديد من الجرائم . كان رؤسـائي المسلحون بالمسدسات حول بطونهم يعلنـــون عـــن نجاحاتي ,ويصرحون بأنني مجتهد , ونشيط . ولكـــن حين انقضت علينا جيوش حلـــف وارســـو(عـــام ١٩٦٨) , بدأت أرى النظام الاشتراكي على حقيقته , وكما يقولون حتى معدته , وهكذا فإنني لم أشـــاهد في حياتي إنسانا يتحدث عن النظام الذي يعمل بـــه بهذا الشكل.

عاد إلينا العقيد مرة أخرى بعد عشرة أيام تقريبا مــن أجل السمك الموعود . وتابعنا أحاديثنا , التي كانت قد علقت في المرة السابقة , وكنــت بــدوري قــد جهزت بعضا من اللحم ,والنبيذ الأحمر , إلا إنه أراد في البداية أن نقرأ بعضا مــن المســتندات الســرية الممنوعة , وكان قد أحضــر معــه كافــة الأدوات اللازمة لفتح الصناديق الحديدية التي كانت تحتــوي على الملفات , وكان يقول لي بأنني سوف أصــدق كلامه بعد قراءتي لبعض الحقائق . وهكذا وصلــت إلى الملف المتعلق باتهام والدك السيد كليمنتيني وقرأته .نعم , إنني أتفهم حالتك, ولكني الآن سوف أدغدغ شعورك ببعض الحقائق التاريخية , ومن تاريخنا السلبق , تاريخ تشيكوسلوفاكيا في الثمانيــة والأربعــين .

استمع لما سأرويه جيدا:

الاستخبارات السوفيتية , وبكل هدوء تتناقش مـــع المخابرات الأمريكية , طبعا الكبـــار مـــع الكبـــار, موضوع حياة, أو موت لسياســـي معـــين . أحـــد الطرفين , ولنقل الأمريكيين لا يريدون موته بشـــكل سريع . وبالرغم من ذلك فالهم لا يعارضون ذلـــك لدوافع انتهازية تتعلق بكره الغرب المتزايد للسوفييت ,ولتسليط الأضواء علـــى الإرهـــاب الســـوفيتي , وليتمكنوا من استخدام هذا الموضـــوع للمنـــاورة ,والالتفاف في أمور أخرى ,وهم في الأصل متأكدون منها . الطرف الآخر السوفيتي يلجـــأ للمنـــاورة , واللعب بهذه الورقة (ورقة موت هذا السياســـي) , ويعرفون أنها ليست الورقة الأخيرة , والأفضل بـــين أوراق العدو, ولكن قتله بهذه السهولة , وبدون ثمـــن لم يكن مطلوبا . وكانوا يريدون الثمن الغالي لفعلتـهم

. بدأت النقاشات بين الرؤساء . اسمعـــني جيـــدا ، وسجل في رأسك ما أقوله لك .

لم يتناقشوا في الورقة التي كانوا يريدون التضحية بــه للأسباب السابقة الذكر ، وهذه الورقـــة ، كـــانت الوزير، المفرط في الحساسية ، ودائـــم الانشـــواح ، والسعادة ، والذي أصبح بين ليلة وضحاها خادما ، وعميلا مزدوجا ، وكما تـــراه مطبوعـــا في أوراق اللعب .كانوا يتناقشون مطولا ، ويعقدون اللقـــاءات ، ويدورون حول الموضوع ، وذلك دون الدخـــول بصلبه مباشرة ، ولكنهم ، وبشكل خفي يثيرونـــــه، وكل طرف يحترم نظريا مناطق نفوذ الطرف الآخر ، مناطق نفوذ حليفنا ، أخونا في الســـــلاح ، ولكـــن السوفييت طلبوا، أو أرادوا التأكيد على نفوذهـــم في مناطق احتلالهم ، وألحوا على ضرورة اعتراف الفريق الآخر ،و الكامل بذلك النفوذ ،وطالبوا اعترافا موثقا

إن أمكن ذلك . الأمريكيـــون كـــانوا متـــأكدين , ويعرفون بالضبط ما يرمي إليه السوفييت , ويعرفـون بأنهم يريدون سماع كلمة نعم نحن موافقـــون علـــى احتلالكم للأراضي , وبدون أسئلة أخرى . ويعرفون بالضبط دبلوماسية السياسيين ذوي التفكير الجامد في الإمبراطورية السوفيتية , حيث يعيـــش الأســـد إلى جانب الخروف في عقل واحد . ولكن السوفييت لـن يكونوا سوفييت إذا لم يستعملوا اللغة الدبلوماســية . وفي هذه الأثناء يقـــف المفـــاوضون الأمريكيـــون ,ويخرجون من قاعة الاجتماع , وماذا حصل بعـــد عدة أيام؟ الوزير , الوزير البدين طار من نافذة ضيقة . لقد أرادوا تعليمه السباحة في الهواء . إن مســـتندا حول هذا الموضوع لم يكـــن في حوزتنـــا في قســـم الأرشيف , ولقد علمت عنه عن طريق العقيـــد . إن سقوط هذه الورقة كان كاملا . ربح الأمريكيـــون

اللعبة, وبسرعة كبـيرة زادت الحمـلات المعاديـة للـــروس في البـــلاد الغربيـــة .
لقد توصلت إلى ملف خطير آخر , ولولا العقيد لما كنت أعتقد حتى مماتي بأن شيئا من هـذا يمكـن أن يحدث . في الأول من ديسمبر من عام ١٩٥١ قـاموا بإعدام مواطننا فـلادا كليمنتيسـا . وأراد بعـض الثعالب الدبلوماسيين الشرقيين من برلين معرفة وقـع هذه الحادثة على قيادييناِ, و تأثيراها على أسودنا .,
قاموا هاتفيا بالطلب مـن جماعـة باتسـيلك , أن يتوسطوا لهم لإجراء مقابلة مع وزير الرقابة خـلال مرورهم بالجمهورية ,وبهذه المناسبة سيتم تقديم هدية تذكارية . بدأت الاستعدادات, وبـدأت الهواتـف بالعمل بسرعة ليكون كل شـيء علـى مـايرام , ولتكون الزيارة ناجحـة , وترفـع الـرأس ,و تم استقباهم بحفاوة بالغة ,وأحضـرت الكامـيرات ,

والمصورون لتسجيل هذا الحدث الهام. كم هم كبلر أولئك الرفاق الألمان .. علي أن أدغـــدغ نفســي لأستطيع الضحك , في الحقيقة إنه أمـــر مقــرف , ويدعو للغثيان

أخبار رسمي يومي حكومي:

خلال عبوره أراضي الوطن قـــام الوفـــد الحــزبي ,والحكومي الألماني بزيارة الرفيـــق وزيـــر الرقابـــة الحكومية باتسيلك . أيها المصورون تحركوا بسرعة , كل شيء جاهز, يصعد المخرج الوثائقي مع المصـــور إلى سيارة التاترا (الملقبة في ذلك الوقت تاترا بـلان- أي التاترا الطائرة) مرتدين السموكنغ الرسمي باتجـــاه مكتب الرفيق الوزير .هاتف مستعجل مـــن فرقـــة المرافقة والحماية . إن المصورين ينتظرون . أخـــيرا تم اصطحابهم إلى غرفة واسعة تشبه الصالون , وأمـــروا

بالانتظار هناك , بدأ الملل يقتلهم , وخرجت عيونهم من وجوههم .

كان الرفيق الوزير مستلقيا على السجادة , و الضيوف الألمان الشرقيون مستلقين معه بين عدد لا يحصى من السكك الحديدية المتشعبة . يتحرك عليها عدد كبير من موديلات لعربات القطار , كانت العربات تنزلق بسرعة على السكك , وتعبر الهضب الاصطناعية , والأنفاق , والجسور , وتمر بمحاذاة القرى , ومحطات القطار , و الرفيق الوزير باتسيلك مغمورا بالفرحة والسعادة من حركات , وسرعة هذه المركبات التي أحضرها إليه الرفاق الألمان كهدية متواضعة , كانت القطارات تتحرك في الاتجاهين , وكانت السيدة باتسيلكوفا (زوجة الوزير) شخصيا تقدم الطعام الشهي في الصحون البورسلانية , المليئة باللحم المقدد , والملفوف الحامض , وكانت تضع

الصحون بنفسها على الأرض حيث كان الضيوف الألمان مستلقين , وهم يتابعون اللعبة الكبيرة للقطارات , بينما كان المصورون يمسكون بالصحون الساخنة , وهم واقفون حولهم , ويتابعون اللعبة ,وينتظرون . لم ينس المخرج—وهذا ما أنقذه بعد ذلك— القول أن الملفوف الحامض كان رائعا , ولذيذا , وكذلك اللحم المقدد . كان أحد رجال الحماية يقوم بمساعدة السيدة الفاضلة حرم الوزير , و يتحرك بين الضيوف , ومن واحد لآخر حاملا بيده صينية مليئة بالمشروبات الروحية . وخاصة الفودكا , كان يسجد أمامهم , ويضع كؤوس الفودكا بجانبهم بين الطرق الفخارية التي كان يسير عليها القطار الألماني السريع . لم يقم المصورون بتسجيل أي شيء من الحفلة ,وخرجوا ثملين , وغاضبين أيضا .

تحدث المخرج الوثائقي مصادفة . وبسخرية في ذلك اليوم بالذات لأحدهم عن تلك الواقعة , وبعد ثلاثة أشهر حكم عليه بالسجن ثلاثة سنوات, وذلك لكونه قد استخف ,ولم يحترم تصرفات القادة السياسيين . هكذا كانت تجري الأمور في ذلك الوقت , وهل استدعاك أحدهم يوما لترى ما يحدث . وبعدها حكم عليك بالسجن لكونك قد شاهدت ما حدث . هل ترى بأنني لولا العقيد, ولو لم يكن قد سمح لي بالاطلاع على الوثائق لما عرفت شيئا عن تلك الرذائل التي كانت تعسعس في نظامنا , وكنت أمارس فيها دور الكلب الذي يحرس هذه الفضائح الموجودة في الخزائن الحديدية. إنك لن تصدق -إن كنا وصلنا إلى وثائق والدك وإقامه-في أي رزمة تكمن الحقيقة . وماذا ؟ وهل كان لوالدتك اليد الطولى في موته ؟ خطأ جسيم . لقد كان يسيطر على

حبها لوالدك شيء آخر, والنتيجة نفسها حبل حـول الرقبـــــة . إنـــــني أنتـــــهي هنـــــا.

-ألا تظن ذلك؟ أشعر بأن المطر قادم. ربما كنت تأمل ذلك , وأننا اقتربنا من الحقائق التي كنت تحـــاول , ولسنوات طويلة معرفتها. ولكن من الأفضل لـك ألا تأمل ذلك. في تلك الأثناء قام ريجنت بالعواء مرتين , واتجه نحو باب الغرفة , بدأ يتحسس بأنفه الفـــراغ الموجود بين دفة الباب , والقالب الخشـــبي . تعـال قلت له (لكليمنتيني), واقتدته عبر المعبر المـؤدي إلى الغرفة الكبيرة التي تسكن فيها الخزائن الحديديـــة , وكان أول ما لاحظه كليمنتيني على الخزائن , هـــو فقدانها للأختام البلاستيكية . أخرجت من جيبي رزمة المفاتيح , وبدأت بفتحها واحدة تلـــو الأخـرى , كانت الخزائن فارغة تماما, وقرأت في عيني كليمنتيني خيبة أمل مرعبة . كانت عيناه ترقصان متنقلتين بين

الخزائن الفارغة من المستندات . مررنا أمام جميعها .هل تستطيع قراءة الهواء؟ سألته وبدأت أضحك

-سامحني أرجوك , وحاول أن تتنشق هواء الخزائن الذي لا يمكن تغييره ولايمكن تهويتها. إنني لا أسخر منك . أرجوك أن تفهمني , لقد قلت لك كل شيء , كل ما أتذكره عن ملفات والديك. دعنا الآن نشرب القليل ونأخذ بعض الراحة.

اهتاج كليمنتيني , وبغضب شديد قبض على ذراعي بكل قوة يملكها , واحمر وجهه, ولكني ابتسمت له ,وتفهمت مقدار الأسى الذي كان يعاني منه , ومن خيبة الأمل .

بدأ ريجنت بالعواء من هذا المشهد . قلت له هيا بنا الآن . سوف اصطحبك إلى المكان الذي توجد فيه المستندات عن حق , وحقيقة .لا بد وأنك تستطيع

قيادة السيارة , سوف نستعمل سيارة اللاندروفـــــر التابعة للقصر.

لم أكن بعد ذلك في حالة تمكنني من متابعة الحديـــث . جلست في السيارة , وبكل حنان اقتربت برأسي مـن وبر ريجنت , والذي أشـــعرني بـــالدفء يـــدب في جسدي , وتابعت الحديث .

— سوف أطلعك الآن على الموضــــوع الأساســـي والذي بدونه سيكون حديثي السابق بكاملـــه غير ذي معنى,وسوف تتأكد بنفسك ,كم هـــو جيد ومفيد ,كونك حتى هذه اللحظة , وحـــتى هذه الدقيقة , وهذه الثانية لم تتمكن من الوصول إلى تلك الوثائق , و من الأفضل لي أن أبلغـــك , أو ربما أدعك ترى بأم عينيك أين هـــو الملـــف الحقيقي . سوف نلتقي الآن بالموت شـــخصياً. ويبقى المهم أنك لا تعرف جواب والدتك مـــن

اللحظة الأولى لاستجوابها , وحتى اللحظة الأخيرة.

أخيرا جاءت الثورة المخملية في العام ١٩٨٩ , وانقلب كل شيء على عقب قبل نهاية العام , وكنت أسكن هنا وحيدا في القصر , لا أبرح مكاني , ولم أزر المخازن . كان الجميع في إجازاتهم , وحتى سائقي لم يكن موجودا , بالرغم من أنه لم يطلب إجازة رسمية .لم تكن هنا حتى عاملة التنظيف.

ماذا يحدث في الجمهورية ؟

كنت أستقي الأحداث من راديو أوروبا الحرة. لم يكن يزورني أحد من معارفي , ولم أسمع رنين الهاتف , ولو لمرة واحدة كما في السابق , حيث كان يزورنا بعض العاملين في المؤسسات . كانت المستندات

موجودة في المعبر. وخلال يوم أو يومين حدثت أمـور غريبة .

حدث ذلك قبل عيد السنة الجديدة , وكان الجـــو ماطرا , وأظن أن هافل كان قــــد أصبـــح رئيســا للجمهورية . أيقظني في منتصف الليل صوت الجرس المزعج للقصر , نهضت من ســــريري , وارتديــت بنطالي , وأخرجت مسدسي , ولقمتـــه . الإنســـان عادة لا يعرف ما ينتظره خلف الأبواب , وعليــه أن يكون مستعدا لكافة المفاجئات , كنت حافيا حـــين اتجهت بسرعة نحو الباب الرئيسي للقصر . وعرفــت بعد قليل بأنني ارتكبت خطأ فاحشا, حيث أنني لــو كنت انتعلت حذائي لكان ذلك بالنسبة لي أكثر أمانا وثقة في خطواتي , وخاصة حين أفتح الباب , ويندفع أحدهم ببسطاره القوي , ويـــدوس فـوق قدمـــي العارية. رفعت يدي اليمنى التي أحمل فيها المســدس ,

وأنا أصرخ..حالا .. إنني قادم . وسأفتح . كنت في السابق وفي أحيان كثيرة عرضة للتفتيش في منتصف الليل من مجموعات الأمن ,و غيرها, وكان علي الاستيقاظ , لمرات عديدة في الليل , ولكنني كنت دائما أجد الوقت الكافي لانتعال حذائي . اعترف بأن شعورا سيئا كان يتملكني في تلك اللحظة. سألت : من الطارق؟ كنت على مسافة عشرين مترا من الباب .. افتح .جاءني الجواب . إننا من وزارة الداخلية . ومن أنتم بالتحديد ؟ سألت مرة أخرى . تبع ذلك لحظة صمت , وسمعت بعدها صوتا ليس غريبا علي , وسمعته من قبل , كان صوت العقيد حين فتحت الباب ,وجدته أمامي , وبجانبه خمسة عناصر , تدل وجوههم على أنهم لم يناموا منذ مدة طويلة , أو أنهم كانوا في سهرة طويلة . كانت عيونهم بارزة من مكانها , ووجوههم متعبة , وسخة

لم تغتسل منذ مدة طويلة , وتقف من خلفهم عربتــان عسكريتان مغطيتان بشوادر ثخينة , وكانت أضواء السيارات مغطاة بالقماش , حيث ينتشر الضوء منها في شعاع ضيق , وكما في حالات الاستعداد للغارات العسكرية . نظر العقيد في وجهي , وقال بأن عليــه أن يقوم بمهمة سريعة , وهامة . وأجبته بأنني موافق , كان المطر يهطل بقوة في الخارج , فقلت لـــه أننــا سنتجمد إن بقينا هنا واقفين ,ودعوهم للدخـــول .

-تفضلوا إلى الداخل . نظر العقيد في وجهي وقــال مبتسما .

-هــل تريــد طردنــا ؟ , وتـــابع حديثـــه .

-علي أن أنقل بعض الملفات الموجودة في الخزائــن , وأنا بدوري أجبته -فليكن ما تريد , ولكن عليك في البداية أن تسلمني التصريح الـــلازم لهــذا الأمــر. اقترب مني , ووضع وجهه بالقرب من وجهي وقال:

-أنك تكالبت بسرعة ؟ أوراق! ألا تسمع صـــوت أوروبا الحرة؟ وماذا تفعل هنا بربك ؟ لقـــد أصبـــح هافل رئيسا , ويريدون تعليقنا من رقابنا , ومـــن أي مكتب تريد أوراق السماح ؟ إنني بالطبع سأســـلمك التصريح في وقت لاحق , ولا تخف , سوف أنقـــل محتويات بعض الخزائن الأساسية في الســـــيارة , ولا تقلق مما سيحدث لاحقا. سوف تذهب معنا الليلـــة , ولكن عليك في البداية أن تحكم إغلاق الأبـــواب, وغدا سوف نعيدك بعد انتهاء المهمـــة . حســـنا .. أجبته .. ولكن ماذا سأفعل غدا إن حضر أحدهـــــم ..مثلـــك مثـــلا , وســـألني عـــــــن الخزائـــــن

--ستقول لهم بأن عنــــاصر وزارة الداخليـــة مـــن براتيسلافا , ولا تنسى أن تقول لهم بأن اثنين منــــهم كانا مـــن التشـــك , وكانـــا يحـــاولان التحـــدث

بالسلوفاكية ,حضروا ,وعرضوا علي أوراقـــــهم , وأختامهم , وأنا كإنسان شريف رضخت لطلباهم .

كان العقيد يترنح . ولكن كلامه لم يكن يدل علــى أنه ثملا . كان الجميع بلباس مدني , يضعــون علــى صدورهم بعض النياشين البارزة . قام العقيد بتلقيــني ما علي قوله في اليوم التالي هاتفيا لوزارة الداخليــة في براتيسلافا – هل تفهم .. تقول لهم بأهم حضــروا , وأمروني بان أطلعهم على مكان المستندات , وبعــد ذلك قاموا بنقلها الى السيارات , وبســرعة كبــيرة اختفوا عن العين . سوف يحضر بعد ذلك اثنان , أو ثلاثة , وسيكتبوا محضرا بالموضوع , وبذلك يكــون الأمر منتهيا.. وما عليك سوى إبراز تلك الورقة التي سأعطيك إياها .هل فـــهمت مــا عليــك قولــه؟ بإمكانك أن تتصور –ياسيد كليمنتيني–العمل الــذي قاموا به . بكل براعة , وخفة نقلوا كـــل شــيء ,

وحتى الأوراق العادية التي لا تمت للمستندات بأيـــة صلة .كان العقيد يمسك بيده ورقة كتبت فيها أسمـاء الملفات المطلوبة بكل دقة وعناية , لقد كان هنـــالك من المستندات الشيء الكثير , والتي لم يكــــن مـــن الممكن استيعابها بتلك السيارات , وحين أصبح كل شيء جاهزا , أردت الذهاب لأخذ حذائي , ولكـــن العقيد صرخ في وجهي , وأمرني بالصعود إلى المركبة قائلا: سوف يكون لديك وقت طويل بعـــد ذلـك لانتعال الحذاء. هيا لا وقت لدينا الآن , ارم المسدس في الداخل , اقفل الأبواب وتحرك . هيا إلى العربـــة. رفعت ساقي حول طرف المركبة , وأصبحت تحـــت الشادر , ورأيت بجانبي على المقعد عددا غير قليـــل من الزجاجات الفارغة للبوروفيتشكا القوية , ورأيت العناصر يتناوبون الشراب من ديميجونة بلاســـتيكية صفراء اللون, وكان كل عنصر- كـــان عددهـــم

يقارب الاثني عشر– يغب بلعة كبيرة من الشـــواب حين تصل إليه الديميجونة , وأخيرا جـــــاء دوري في الشرب , لقد كان شرابا مصنوعا في البيوت , وربمـا كانت درجة الكحول فيه تعادل تلك التي نشـــــربها الآن سوية يا سيد كليمنتيني , وبالتدريج بدأ يراودني شعور خفي بأن أولئك الناس الذين يجلسون معــي في المركبة , ربما كنت قد التقيتهم , وعرفتهم في مكان ما قبل هذا اليوم , وربما كنت لأقسم بأنني رأيتـــهم في مكان ما, في تلك الأثناء وصلني الشـــراب مـــرة ثانية , وفي لحظة تيقنت بأن هؤلاء الرجال ينفـــذون مهمة خطيرة , وينقلون مستندات ,وأشـــياء هامـــة وأساسية تدين السجانين ,وتكشف النقـــاب عـــن أسرار جرائمهم , وتدين معهم رؤســـائهم الذيـــن اقترفوا الفظائع في فالديتسي , لم أصدق عيـــوني , واعتقدت بأنني أرى معجزة سيئة , وربما أنني أتخيل ,

أو أنني ثمل , بدأت أمعن النظر في وجه كل واحـــد منهم على حدة خمس ثوان . كانت وجوههم تبـــدو شبيهة بالضبط بالوجوه التي رأيتها حين مات ســتالين . كانوا في منتهى الحزن , والرعب , وكـــان هــذا المظهر مطبوعا على وجوههم, ويمكن قراءته بسهولة . لا , لاتظن أني انتظرت اللحظة التي سوف يسألوني بها عن سبب نظراتي الطويلة في وجوههم , فان هــذا الأمر لم يخطر ببالي أبدا, ولست أدري لماذا , وحـــتى مماتي لن أعرف السبب الـــذي دعـــاني أن أصـــرخ بصوت عال في وجوههم اننا نعرف بعضنا , وســـبق أن التقينا أليس كذلك ؟ هزوا برؤوسهم موافقـــين على كلامي , شراب جيد أليس كذلـــك تـــابعت حديثي , وهم بالمقابل أشاروا برؤوسهم بالموافقة على كلامي . كنا قد قطعنا مسافة طويلة حـــتى ذلـــك الوقت , وربما كان قد مضى على سفرنا ساعة مـــن

الزمن , ولكني لم أكن أعرف حتى تلك اللحظـــة إلى أين نحن ذاهبون , وذلك بالرغم من معرفتي الجيـــدة بتلك المنطقة , وتلالها , وكل شيء فيها , كنا نصعـد , ثم نهبط . وفجأة انعطاف قوي , وبعدهـــا بـــدأت السيارة تسير عكس اتجاه السير , كـــانت الســـاعة تقارب الثانية عشرة والنصف ليلا حـــين توقفنـــا.

كان نزولي من السيارة في غاية الصعوبة , حيـــث أن جسدي لم يكن يقوم بمتطلبات عقلي , تلفت يمنـــة, ويسرة , و لم أشعر بأني أعرف هذا المكان من قبـــل , كانت هناك بعض الأضواء , ورأيت من خلالها حفرة كبيرة , وعميقة ربما تبلغ مساحتها ٢٠ م ٢ فاجـــأني المنظـــــر و لم أصـــــــدق عيـــــــوني .

كان الرجال الذين ساهموا في حفرها مصطفين حولهـ , وبيدهم أدوات الحفر , وشكلهم يدل على أنهـــم كبارا في السن , ولا أظن أن أحدا منهم يتبـــع وزارة

الداخلية , وربما بدءوا في الحفر منذ صباح ذلــــك اليوم . قام هؤلاء الشباب الذين جلسوا معي تحـــت شادر المركبة, ومعهم بعض الرجال مــــن الســـيارة الثانية, التي جلس فيها العقيد , بإنزال الوثــلئق , و أنزلوا معها براميل لم أعرف محتواها , وعرفت لاحقــد بأنها كانت مليئة بالكلس- في تلك اللحظة قبـــض العقيد على ذراعي وشدني إلى الأسفل باتجاه الحفرة . بدأت أنظر في قاعها, كان ما رأيتـــه شـــيئا مرعبـــا وأحسست برغبة كبيرة بالاقياء من ذلك المشـــهد , إلا أنني تمالكت نفسي .كانت الحفرة مليئة بالهيــدكل العظمية . هيكلا فوق هيكل , وبرزت بين الطــــين الرطب في القاع هنا وهناك نهايات العظام المدفونـــة بين الطين الرطب بسبب الأمطار التي كــــانت قــد هطلت في ذلك اليوم , كان لونها شاحبا , وجافـــا يشبة أوراق الغار من تأثير الضـــوء . هــل تــرى

.....هل ترى قال لي العقيد بصـــوت منخفــض ,
أظنك تفهم ماذا يعني هذا المنظر . وقـــف الجميـــع
حول المقبرة الجماعية بدون حراك , وتـــابع العقيـــد
حديثه : علينا في البداية أن نأكل , إن الأكل عـــادة
معروفة بعد الجنازة , كانت رائحة الطين تملأ المكان ,
حين اقتادني إلى خيمة لم أكن قد تنبهت لوجودها من
قبل _ خيمة من النوع السياحي-كانت مضاءة مـــن
الداخل , ورأيت على بعـــض الصنـــاديق الخشـــبية
الموجودة على أرضها قطعا من السلامي (نوع مــــن
اللحم المقدد) تشبه بطولها ثمار الـــذرة المطبوخـــة ,
وجلس هناك بعض الرجال, والذين لم يكونوا معنـــا
في السيارة, يحتسون الخمر,ويأكلون اللحم المقدد مع
الخبز الأبيض -خبزا مصنوعا في البيت- كمـــا أن
الرجال الذين كانوا قد حفروا الأرض تناولوا بعضـــا
من الطعام , والشراب مثل الآخرين, وكان أصوات

مضغهم مسموعة , وكانت رائحة الطين الرطب تمتزج برائحة قماش الخيمة التي كنا وصلنا إليها ,وبدت وجوه أولئك الرجال المسنين الذين قاموا بالحفر جامدة . وكما أنهم كأنهم يفكرون بحل الكلمات المتقاطعة, وكان ضوء المصباح يترنح في الهواء حول الحفرة الكبيرة , ومن خلاله لاحظت بأن بعض الجماجم الطافية فوق الطين كانت قد تلقت رصاصة في الجبهة . قام الرجال بعد ذلك برمي المستندات فوق الجثث , بما فيها اعترافات والدتك يا سيد كليمنتيني , وبعد دقائق كانت الأوراق تغطي العظام بكاملها , بعدها قاموا بردم المستندات بالكلس , وليتك ترى كيف دب النشاط في نفوس أولئك المسنين بعد أن شاهدوا الكلس يغطي المستندات و العظام , وبعد ساعتين من العمل انتهى كل شيء , ولم يبق أي أثر للمستندات .

كان الرجال المسنين يعملون بسرعة ,يتحركون كما في الأفلام الصامتة السريعة , وبعد ذلك جـــاء دور الطين المبلل ليغطي الكلس , وفي النهاية , وضعـــوا فوق الأرض بعض الأعشاب الخضراء , ولم نعد نـرى شيا يدل على أن هناك جثثا ومستندات وقبرا جماعيا.
في أحد الأيام , وربما كان ذلك بعد شهر من حادثـة إعدام المستندات , أي بعد الجنازة , والوليمة , بعــد تلك الليلة الفظيعة , انك تفهم مـــا أريــد قولــه , التقيت بالصدفة في مدينة بيستريتسا, وفي المستشــفى , بذلك الإنسان الذي لا أريد ذكـــره بالاســم . التقيت العقيد , التقينا في القسم الذي يقومون فيــه بإصلاح الركب المهترئة . سألني , وكنا قد أصبحنــا خارج المشفى – إن كنت ما أزال أذكر الأحـــداث الماضية بشكل جيد , أو أنني تعلمت النسيان , كان يوما مزعجا , غطى الضباب فيه السماء , والأرض ,

وكما أنك تسير في النشاء المطبوخ ,كان كل شـــيء مغمسا في النشا . الأشجار. الطرق . ونحن الاثنــلن , وأوربين (اسم المدينة) أيضا .

استدار نحوي قائلا :

–لقد انتهيت من مشاهدة الصور. –

عن أي صور تتحدث ســألته

–تلك الصور أجابني : صـــور الثعــالب الكبــيرة ,والصغيرة , وشبيهاها صور القنفذ , والزرافــة , – كان شيئا عظيما , لو أننا ...جميعا في نهاية حياتنـــا أصبحنا قسما من تلك الصور , مجموعة في كتـــاب مخصص للصور التي كنا نحبها , أكثر من غيرها. كـلن يمكننا أن نكون بوجهين . وربما كنا سنغدو سـعداء , وخالدين إلى الأبد في كتب الحكايــات المخصصـة للأطفال مع صور الحيوانات , وكان ذلك ســيكون أكبر رحمة لنا في العالم الآخر, إن كان هناك عالم آخر.

طلب مني ألا أغادر في ذلك اليوم بالقطار إلى مدينـــتي , وأن أبيت في الفندق, وأن أخبره مباشرة عن إسمه , ومكانه , و سوف يتصل بي لنلتقي مرة أخـــرى . لم أناقشه في الموضوع , ونفذت ما طلبه مـــني . بعـــد عودته من المستشفى أطلق على نفسه عيارا ناريـــا في الحمام.

جاء ذلك في الرسالة التي خطها لزوجته , وكتـــب فيها بأنه فعل ذلك لكي لا تعذب نفسها في تنظيف غرفته , ولقد عرفت ذلك لاحقا, وربما كان لم يقـــم بهذه الفعلة لو كانت زوجته , وطفلها موجوديـــن في البيت . وهذا أيضا عرفته في وقت متأخر, إذ أنهـــــا هجرته , وذهبت مع عشيقها . لقد تقدم في السن , ولم يعـــــد يقـــــوم بواجباتـــــه الجنســـــــية . تحدثت معه مطولا بالهاتف قبل أن يطلق النار علـــــى نفسه , وفي سياق الحديث , أخبرني بـــان لا أهتـــم

بموضوع الوثائق المدفونة , وأن أولئك الشيوخ الذين قاموا بحفر الحفرة هم الذين قاموا , وكانوا شبابا في وقتها بقتل ما يقارب الخمسين سجينا سياسيا في عام ١٩٤٨ , وكنت على علم بتلك الجريمة منذ وقت طويل, وتابع العقيد حديثه الهاتفي معي : -كنت صامتا طوال الوقت , وكان معرفة ذلك الموضوع بالنسبة لي يعادل الرصيد في البنوك السويسرية , وفكرت في أن أجعل منه صدمة لهم جميعا , وكنت أعرف عناوينهم بالدقة , وقدرت أن الوقت قد حان لإجراء تلك العملية ,وأنهم سوف يرتعبون حين أطلب منهم القيام بالحفر, ولدهشتي , فأنهم بعد أن قاموا بدفن المستندات ,أصبحوا يشعرون بالراحة , وبدؤوا ينامون ملء جفونهم , ولم يعد هناك ما يؤرقهم . وهل تعرف ماذا سيحصل بعد كل ما جرى , تابع العقيد حديثه الهاتفي , إنني لن أكون بين

الأحياء ولكنني متأكد من أن هذا الأمر سيحدث . سوف يقومون بعد موتي بالتحقيق في الموضوع على مستويات مختلفة, ولكن المحققين جميعهم سوف يتفقون على شيء واحد . القيادة الجديدة سوف تتفق على شيء واحد . القائد البلشفي, أراد التخلص من الوثائق . ولكنه اكتشف بأن أحدهم قد سبقه إليها . وكيف عليه أن يتصرف بعد ذلك ؟ انقض على موظف الأرشيف , ولكنه وجد بأنه تصرف على أساس مستند قانوني , حين قام بتسليم المستندات , وعرف الرئيس بعد ذلك بأن نهايته قريبة . وماذا عليه أن يفعل في تلك الحالة ؟ انه لن يسمم نفسه كجرذان البنايات ! ولن يبلع حبوبا منومة . بل سينتحر رميا بالرصاص , وسيتصرف كأي جندي محترف في العالم في مثل هذا الموقف. نعم الانتحار ,هكذا سيفكر أكثر المسؤولين حين

يتعرضون لمثل هذه المواقف . وستبدأ التحقيقات على كافة المستويات . وسوف يسير التحقيق بشكل مـد . لن يكون هناك فريقان يتصارعان, وسوف يكـــون هناك الكثير من الماء العكر . وكمـــا يحصـــل بعــد الطوفان , وعادة بعد تبديل النظام يحصـــل طوفـــان كبير, وبعد وقت ستتغير الوجوه , وســـوف يـــترك العديد منهم وظائفه , وغيرهم سوف يعلق الأوسمـــة على الصدور. بعد ذلك سوف تستيقظ الملفات مـــن موهما, بعد أن دفنـــــت . هـــل تســـمعني جيـــدا , أوندرو:سوف تستيقظ الملفات الميتة, وكلمـــا ازداد نسيان تلك الملفات —ومهما كانت التحقيقات الـــتي ستجري— وكلما دفع الزمـــن بتلـــك الملفـــات إلى الماضي, كلما ازدادت الرغبة في كشفها , وســـتبدو طازجة, سوف ترى , وستبدو الملفات ,وكما أنهـــا غطت في نوم عميق ! وستكون بعد ذلـــك أكـــثر

حضورا كلما أرادوا نسيانها, وذلك لأن جميع هـؤلاء الوسخين , عملاء الشرطة , والذين كانوا في يوم من الأيام تحت قبضتي , ورهن أوامري , ورائحة عرقـهم تفوح في قاعات الرياضة , وكما أنهم لم يغتسلوا بعـد التدريب, أولئك الذين طمروا الملفات معي, سـوف يشعرون بالخوف! هل تفهم ؟والملفات ستبقى حيـة من خوفهم , وستعود الروح إليها , وتعـود إليـها الحياة , لن يستطيعوا النوم , وفي احسن الحـالات سـوف يعملـون في الزراعـة , إن لم يذهبـوا إلى السجون, هل تعلم بأن أحدا منهم لم يكن ليتجـرأ , ويبلغ زوجته بما حصل , وسيقف بعضهم أمام بعض, ينظر بعضهم الى البعض ,و يمطروني باللعنـات , إن كلا منهم شارك في سرقة أموال , ومقتنيات الموتـى الذين شاركوا في إعدامهم , وسوف يلعنوني لأنـني جعلتهم يشاركون في حفر القبور للملفـات الـتي

تدينهم , وهربت من البـــاب الخلفـــي, وتركتـــهم وحيدين , وأطلقت النار في رأسي . سوف يقـــف واحدهم بالمرصاد للآخر .ويراقـــب كـــل منـــهم تصرفات الآخرين .لقد تعودوا النظر إلى كل شـــيء عبر المال , عبر المال في كـــل الحـــالات , وســـوف يشكون , ويظنون بأن أحدهم قد وشى بهم ,و عـــن الملفات , ولهذا فانه يعيش حياة رغيدة , ولهذا سوف يراقبون تصرفاته , وخاصة إن قام بشراء أشياء باهظة الثمن , وأن باتت زوجته تلبس ثيابـــا في منتـــهى الأناقة , وإن قام برحلات سياحية متكـــررة , والى أين؟ , وسيتضاعف شكهم , إن كان مطبخه مجـــهزا بأحسن التجهيزات الحديثة ,وكيف حدث أن انتقـــل أحدهم إلى بيت جديد , حيث الايجار يتضـــاعف , هل تسمعني ؟ وتابع العقيـــد : إن الخـــوف الـــذي يتملكهم الآن سوف يكون رهيبـــا. إن زوجـــاقم

سوف تقرأن الدعايات الجميلة لبيوت الأناقة ,
وأنا رئيسهم سوف أتفسخ تحت التراب في ذلك
الوقت _ولكن إن كانت هناك حياة أخرى-سوف
أنفجر من الضحك
قلت للعقيد:
إنني أعرف تمام المعرفة بأنك كنت تكرههم, وهذا ما
عرفته منذ البداية, ولماذا تريد الانتحار؟
وهل بسببهم؟ أجابني على سؤالي : هل تدري بأنني
استدعيت لتلك العملية , لعملية دفن الملفات
أسوأهم , وأقساهم عقولا , وتحجروا , أصحاب
الرؤوس السنديانية . سألني إن كنت أتذكر الآن ,
الآن قبل انتحاره تلك الحفرة الجماعية , حيث كانت
العظام , وأتذكر بأنه سألني عدة مرات عن رأيي في
تلك العظام التي كانت في الحفرة, ولم أكن أملك
الجرأة للرد , وخفت أن أفتح فمي , وأنطق بأية

كلمة . ألمان؟ثوار؟ يهود؟أمريكيون؟ عناصر من أمن حكومة هلينكا(حكومة نصبها هتلر إبان الحرب في سلوفاكيا)؟ إنكليز؟فلاحين من قرية قريبة؟ من يكونوا ؟ من يكونون أصر العقيد على سؤاله , ومن صوته اشتممت ابتسامة حزينة . وراودني في ذلك الوقت شعور بأن العقيد كان يلعب معي . ولماذا عاد ليذكرني بتلك الحفرة المقيتة ؟ لم أرد عليه مباشرة , وتركته ينتظر, وأظنه أراد أن يسمع مني جوابا . يريد منه اعترافا . بأنني لم أشاهد منظرا مشابها من قبل , ولن أشاهد ربما في المستقبل , أجبته مرتبكا , بأن الحفرة بحد ذاها لم تفاجئني , لأني شاهدت في حياتي أشياء أسوأ منها بكثير , وشرحت له حادثة جرت معي حين ذهبت لزيارة زميلي ابن أستاذ في كلية الطب في مترله , والذي رفض طلبه للالتحاق بالجامعة , وكان يعمل معي في المكسر, ولا أتذكر

بالضبط الموضوع الذي كنا نتناقش حوله , ولكني تذكرت بأنه , وخلال محادثتنا , ومنذ البداية كنت أركز نظري بشكل متقطع , وبعد ذلك بشكل دائم على رؤوس صغيرة , رؤوس بنية اللون تشبه الجلد المدخن الذي يغطي الشحم , وهي أعمال ربما قام بها نحات فنان , ركزت على قواعد قاتمة اللون , وعلى هذه الرؤوس الحليقة التي لا يتعدى حجمها قبضتين ملتصقتين , وانتابني شعور بأن هذه الرؤوس يشبه بعضها بعضا, و لهذا السبب نشا في ذهني سؤال محير, إن كانت هذه الرؤوس المنحوتة الموضوعة فوق الرف الخشبي لرجال أو لنساء , لقد شدتني هذه الرؤوس بشكل غريب , ولكني لم أكن أعرف السبب , ومن خلال تتبعي لتلك الرؤوس انتابني حزن عميق لم أستطع تفسيره , وطوال الوقت الذي كنت أراقب فيه ,كنت أحس بانقباض , وبشيء لا

أستطيع تسميته , كان شعورا قريبا من شـــعوري في السجن , وانتبهت منذ البداية , بأن هذه الــرؤوس المنحوتة تملك شيئا , شيئا يجعلك مضطربا , ولذلــك كنت مضطربا منذ اللحظة التي دخلت فيها الى تلــك الغرفة , ولكني في البداية لم أكن قد تنبهت لوجـــود تلك الرؤوس المنحوتة , وكنت أشبهها بصور مثلثــة الأبعاد .

الهم حمايتنا, قال لي مضيفي , ابن الأستاذ الجـــامعي , حين شاهد نظراتي ,واهتمامي بـــالرؤوس المصفوفـــة على الرف الخشبي , استدار نحو الـــــرؤوس,وتـــابع حديثه قائلا : يبدون مـــــترفعين , أليـــس كذلـــك؟ متفاخرين —يشبهون النواب الرومان, وربما القيصر , إنها رؤوس مشرحة لهنود فترويلا– عمل متقـــن . إن المشرح فنان أتقن عمله —عبقري مجـــــهول . لقـــد أحضرهم جدي من فترويلا, ولقد أهدى بعضا مـــــن

مقتنياته للمتحف, واحتفظ بتلك الرؤوس فقــــط ,
وحين كنت صغيرا كنت أستعمل هــــذه الـــرؤوس
لحراسة القصر الذي كنت قد أنشأته مـــــن القطـــع
البلاستيكية الصغيرة , كانوا يقومون بالحراسة . والى
أين وصلت في النهاية ؟ مكسرا للحجارة ! وحسب
ما رواه جدي فاهم قاموا بتشريح تلك الرؤوس بعـد
إعدام أصحابها ,انظر جيدا في تلك الرؤوس . وانتبـه
إلى علامات حبل المشنقة على الرقـــاب . لم أتفـــهم
شعور أولئك الناس في تلك العائلة , وهم يجلســـــون
على طاولة الطعام , وخلفهم تلك الرؤوس , كيـــف
يمكنهم الأكل , والشرب ,وقراءة الجرائـــد الخ...
لقد كنت اتحدث للعقيد عن هذه الحادثة , ورغبـــتي
الأساسية إبعاد تفكيره عـــــن موضـــوع الانتحــــار,
وبالرغم من أن العقيد كان محترفا للأعمال الســيئة .
وكان يعرف الشر, وأدواته بكل تفاصيلها , كونــــه

كان يعمل طيلة حياته في هذا المجال ,كان بالرغم من ذلك كله , ومن خبرته , عبارة عن إنسان حـــالم . يؤمن بأن الناس الأشرار _حين يشـــكلون مجموعـــة كبيرة أو صغيرة– عاجلا أو آجـــلا ســـوف يقتـــل بعضهم بعضا . وأنهم وحتى اللحظات الأخيرة لـــن يتراجعوا لخطوة واحدة , وإن كلفهم ذلك حيـــاتهم , إنني أشعر أحيانا بأن العقيد لم يكن يحلم .

لقد أكد لي , بأن الشر يمتلك خصائصه التشـــريحية . وجهازه الداخلي , وأن كل نوع من أنواع الشر لـــه حياته الخاصة , له شبابه , رجولته ,كهولته, وموتـه , وبغض النظر . إن كان مرتكبه إنســــانا مفكـــرا أو قاتلا. لا أعرف بالضبط كم تحدثت مع العقيد عـــن تلك الرؤوس المشرحة , ولا أعرف أيضـــا ســـبب انزعاجي الكبير من رؤية الهياكل العظمية في تلـــك الحفرة , إن كنت قد شاهدت رؤوسا مشرحة علـــى

الرف الخشبي في منزل ما . وما هو الفرق بين ابـــن الأستاذ الجامعي , والذي لم يكن يشعر بوجود الشر, وذلك السجان في فالديتسي ؟ لقد حزنت وشـعرت بالأسى لوجودي بين تلك الرؤوس الموجودة في بيـت الأستاذ الجامعي , وذلك بالرغم من أنني خرجت حيا من السجن.

أحسست بأنني تحدثت عن هذا الموضوع باختصـــار شديد مع العقيد , وذلك لكونه كـــان يقــاطعني . وكان دائم التأكيد بأنه لم يبح لي بعد بالشيء المـهم , وهو أن القبر الجماعي كان يحتوي علـــى أسمــاك , أسماك صماء وبكماء.

اسمح لي أيها العقيد المحترم , واعذرني لكوني أقـــول لك وجها لوجه , أو أنـــني أتحـدث إلى أذنيــك , وتابعت حديثي .

-لقد اخترت حفارين إلى ذلك القــــبر الجمـــاعي, وانتقيتهم من المجرمين . ومن أعضاء فرقة الإعـــدام , من أولئك المجرمين الذين أطلقوا النار على من انتــهوا في الحفرة الجماعية, يا عزيزي العقيد, لقد انتقيتــــهم ,وانتقيت أولئك الكهول , وأنت على دراية بعملـهم منذ وقت طويل, ومنذ بدء عملك في سلك الأمــــن الحكومي . سألته مرارا, وتكرارا عن سبب احتفاظـه بالكهول السبعة أو الستة , والذين لم يرتاحوا بعــــد اقترافهم الجريمة , وربما هناك العديد منهم , ولكنــك اخترت أقواهم . لكي يتمكنوا من الحفر , كما فعلوا في السابق .وسألته أيضا إن كان يريد إعادة تمثيـــــل تلك الجريمة مرة أخرى , وسألته عن سبب احتفاظـه بتلك الجريمة لنفسه , وكما يحتفظ بممتلكاته الخاصة. وعن سبب إخفاء هذه الجريمة , وعدم تقديمـــــها إلى القضاء, أجابني بأنه كان خائفا أولا , وثانيا بأنه كـلك

لا يؤمن بعدالة القضاء, وثالثا بأنه متزوج وله عائلة يخاف عليها, ورابعا بأن هذا الأمر قد انتهى , وأنه قد تحدث به مع رؤسائه , وأنه سوف يقتل نفسه بطلقة في فمه.وأنه أراد أن يذكر أولئك المسؤولين بأنهم لن يهربوا من القدر الذي لن ينساهم , وأن أحدا يعرف بأنهم قتلة . ويعرف أسماءهم , وعناوينهم, ولكن لماذا لا تسألني عن سبب إعدامي للملفات؟

أعتقد بأن العقيد قد انتحر بعد هذه الكلمات , سمعت صوتا مدويا في سماعة الهاتف , وكأنما شيئا انفجر في رأسي , وبعد ذلك جاء صمت موحش, وللحظة شعرت بأني فقدت سمعي , ولم أعد أسمع خدش عود الثقاب حين هممت بإشعال سيكارتي , وراودتني فكرة إبلاغ الشرطة عن الحادث , ولكن الخوف منعني . كان خوفا من النوع الذي جعلني

أرتعش , وأسمع صكيك أسناني . رشفت دفعة واحدة كأسا من الكونياك , الذي كنت قد اشـــتريته مـــن المدينة بعد وداعي للعقيد, وسألت نفسي , وأنا بـــين الوعي اللاوعي–هل شعرت بالخوف ذاته حين كنـــت في فالديتسي – , لا أعرف . لا أعـــرف , أعـــترف بذلك . ولكن مرة واحدة شعرت,وكأنني في سروال نوم فارغ . ولكني لم أفقد منطقـــي : لا يمكنـــني أن أبلغ الواشين عن هذا الأمر , لأنني أعـــرف بـــأنهم سوف يحضرون إلى مكان إقامتي , وسيقلبون كــــل شيء فوق رأسي : وكيف حدث ذلـــك .وكنـــت تتكلم مع العقيد في ذلك الوقت ؟ وهل كنت علـــى علاقة حميمة معه ؟ ومن أي نوع كانت العلاقة الـــتي تربطك به ؟ وعن أي شيء كنتم تتحدثون قبـــل أن يطلق النار على رأسه ؟ وهل كنتم تتجادلون في شيء ما ؟ وما سبب مخابرتك له , وبالذات أنت , أنـــت

الذي كنت شاهدا على إعدام الملفات ؟ وماذا لـــو أنكم قد سلمتم الملفات لدولة أجنبية , وبعد ذلـــك اختلفتم ,ووصلتم إلى الجدال حول ذلـــك ؟ تكلـــم تكلـــــــــم ,تكلـــــــــــــم.

لدينا العديد من الخبراء , حقيقة: لقـــد كنـــت أول الخائفين مما قاله العقيد.

مكثت في الفندق ثلاثة أيام .أقسم على ذلك , ثلاثـة أيام بكاملها , وأنا أزور الأطباء , والذين توصلـــت إليهم عن طريق معارفي , لقـــد قـــاموا بفحصـــي , وأجروا لي فحصا كاملا للسكر قبل الإجهاد , وبعده , وقاموا بتصويري من رأسي وحتى أخمص قدمـــي . وأجروا لي تصويرا بالايكو , وتوصلوا في النهاية إلى أن بطيني الأيسر ضعيف منذ الولادة , ولو كنـــت أعرف ذلك في الســـجن لكنـــت أصبـــت بانهيـــار

حتما.وأرسلوني لإجراء فحوص أخرى . كنت قـــد أجريتها في قسم الداخلية قبل ذلك . حـــين كنـــت نزيلا هناك , وكانوا قد شـــخصوا لي حصيـــات في المرارة, وارتفاعا في نسبة الكولســـترول في الـــدم , والتهابا في القصبات , وضعفـــا في عمـــل الكليـــة البسرى , وكل هذا لم يكن مستغربا بالنسبة لي بعـــد أن عودوني على تحمل البرد القارس في السجن , لقد وضع طبيب البولية ما تبقى من جيب خصيتي بـــين إصبعيه , وسألني مستغربا :

—ما هذا , أجبته : فالديتسي. كان طبيبا شابا , نظر الى قضيبي , وجسه بيده كما تجس القماش الشـــتوي حين تريد شراءه من المخزن , وسألني : فالدينســـي , وماذا تريد أن تقول؟ , وما معنى فالديتسي؟

خلال تلك المدة , كان هاجسي الوحيـــد , وأرقـــي الدائم , وسؤالي الملح هو :

–هل كانوا يتنصتون على محادثتي مع العقيد , وذلك بالرغم من أنه هو الذي طلبني على الهاتف , ومـتى سيحضرون ؟. كنت أنتظر قرع الباب في الليل, وفي كل مرة أعود فيها إلى الفندق . كنت أحـدق في وجوه الناس ,الذين يوجدون هناك . وكنت أسـأل موظف الاستعلامات . وانظر في عيون النـاس , لأن العيون لا يمكن خصيها , وهي ممثلات بارعات . بعد ذلك تأكدت بأنهم لم يتنصتوا لحديثنا علمـا بـأنني تحدثت من غرفتي في الفندق. ولكن كيـف حـدث ذلك , ولم يتنصتوا؟ وماذا يفعلون إن لم يتنصتوا على هواتف الفنادق ؟

بعد نصف أسبوع , بدأت التحقيقات بشأن الملفـات المعدومة , والعقيد الذي,وعن قصد لن أسميه باسمـه كان محقا في تخميناته المستقبلية , وذلك لأن أولئـك الذين ساهموا في إعدام الملفات بدؤوا يراقب بعضـهم

بعضا , وبعد كل هذه التحقيقات التي جرت بعـــد ذلك, والتي استغرقت عدة أسابيع . الآن, وبعـــد موت ذلك الذي يدعى العقيد, بدأ ذلـــك العقيـــد المنتحر بالعمل .وكان حاضرا في مكتبه أكـــثر مـــن السابق , كان يريد أن تجري الأمور في نصابها . يمنـــح كل شيء للعمل , كان ينظف مسكة بابه , وأراد أن يعوض كل ما فاته . بدأت في الحقيقة حربا بكـــل معنى الكلمة , وكما كانوا يقولون عنها في أيامنـــا , حربا بلا هوادة من التحقيقات المستمرة.

نسيت أن أخبرك بأن العقيد تمكن , وبشكل ســـري التقاط عدة صور فوتوغرافية بآلة تصويـــر غربيـــة لحادثة إعدام الملفات , وبعد وقت قصير من الحادثـــة أرسل لي تلك الصور بالبريد . وهـــي هنـــا الآن في غرفتي .قمت بفتح جارور الطاولـــة , و أخرجـــت الصور , وتركت ضيفي يتفحصها.

أرى أنك لست متحمسا لرؤيتها...سوف ترى بينها صورة المقدم شابس ,الذي كان يعمل مساعدا للعقيد في تلك الأثناء. انه الآن مقاول , ورجل أعمال من الطراز الأول , ولا شك انك تعرفه جيدا. ويمتلك في منطقتكم مخزنا كبيرا. وبالتأكيد فانك تشتري منه أيضا حاجاتك اليومية . يبيع المواد الغذائية في الطابق السفلي , وفي الطوابق العلوية يبيع الأدوات المنزلية من المكنسات الكهربائية ,والمكروويف, وطواحين اللحم الكهربائية , واليدوية أيضا, لماذا تنظر الي هذا الشكل , وهل تظن أنني سوف أصاب قريبا بنوبة صرع؟

غالبا ما أفكر -خاصة في الأوقات الأخيرة -بالعقيد, ونظريته عن الشر. كان إنسانا بسيطا , ومتواضعا في حياته , وهل تعلم بأن أفضل طعام كان يتناوله

يتألف من حساء فيتانا مع العجينة ؟ حتما انـــك لا تعرف ذلك. شيء لا يصدق!

حساء فيتانا مع الرز الحكومي , وذلك بالرغم من أنه لم يكن مقترا بارعا. فقد دعاني مرة إلى مترله . وكـان يريد تصنيع بعض المعلبات من الفطور , التي أحضرها من منطقة أورافا . كان علي أن أشمها حتى أتـــذوق طعمها على لساني , وأصبـــح وجـــهانا مبللـــين . وساخنين وكما أننا وضعنا وجوهنا فوق بخار البابونج . لم أعد أعرف كيف وصل بنا الحديث عن الشـــر, ونادرا ما يعاقب الشر مباشرة من بدايته , ولا يوجد من يقوم باتخاذ قرار سريع , ومباشر في إيقاف الشـــر ومعاقبته , كما نرى في أفلام الإثارة , حـــين تصـــل المروحية إلى مكان الحدث , ويهبط منها رجال الأمن , وينهون الشر الحاصل , ويسيطرون على الأشرار .

إن الرب لا يبذر بالمعجزات , ليست من اختصاصه , ولا يمكنك أن تتوقع من الرب تضخيم المعجزات .

أكبر خطأ ارتكبه العقيد في حياته كـــان زواجـــه في وقت متأخر, وربما كنت قد حدثتـــك عـــن هـــذا الموضوع .

كان غالبا ما يحاول برهنة شيء ما, وكـــان يكـــرر مقولته دائما , وقالها قبل انهيار النظام الشـــيوعي في بلادنا , وذكرها في ساعة موته . كان يحاول إقنـــاعي بأنه لم يكن يرى الشر في العمق , وبأن الشر يمكـــن مقارنته بنوع من الزجاج – ضد الكسر– الـــذي إن أردت كسره عليك أن تصيبه في نقطة حساسة جـــدا , وحين تصيبه في هذه النقطة تراه يتكسر بســـرعة . إن هذا النوع من الشر يتكون من مجموعة متماســـكة يلتف بعضها حول بعض , وتلعب لعبتها بإتقـــان و تماسك يشبه تماسك فريق الهوكي , ولكـــن في يـــوم

جميل من الأيام سوف يصطدم ذلـــك الشـــر , وفي النقطة الحساسة بشيء ما , وسيتكسر , وبعد ذلـك سيبدو كل شـــيء واضحـــا, وســـتنتهي اللعبـــة . انه قانون الطبيعة الذي لا يمكن مراقبته في القارورة , وليس من الضروري أن تتحلى بالأخلاق الحميـــدة . إن الطبيعة سوف تجبرك على الشعور بقرب النهاية , ولهذا فان المضطهدين لا يسألونك عن سبب صبرك , وعن سبب خنوعك كالكلب حين يموت . ومـــاذا فعلت , وبماذا اقموا والديك , ووالـــدي , حـــين تتعذب .انك لست السبب فيما حِل بهم , لأنـــك لم تكن قد ولدت بعد. إن قرابة الدم تشـــبه شـــريط المسجلة. غالبا ما كنت أشعر بأن العقيد كان مخطـئ , لأن الخوف لم يفرق رؤسائه كما كان يتوقع , نعم في البداية شعروا بالخوف , ولكن لعدة أسابيع فقـــط. بعد ذلك , وغالبيتهم ممن كانوا تحت قبضة العقيـــد ,

بدؤوا حياتهم من جديد , وانكبـــوا علـــى العمـــل التجاري , والمقاولة , فمنهم من بدأ حياته الجديدة في مخزن كبير, والثاني عمـــل في الخدمـــات العامـــة , والثالث في مركز لتنظيف الملابس , الرابع بالفنادق , والخـــامس .. لم أعـــد أتذكـــر

ولكني أعرف أحد أعضاء هذه المجموعة , والـــذي باشر تجارته . ونشاطه في مصلحة دفـــن الموتـــى , ويملك الآن مركزين , ومركـــزا آخـــر لصناعـــة السيراميك الذي يضعونه على القبـــور , وينحتـــون صورة المتوفى عليه , وأحدهم بدأ عمله مقابل محطـــة القطار , حيث يبيع الوجبات السريعة , وكما يقـــلل الأكل الشعبي الرخيص , وأحدهم أنشـــأ مؤسســـة لتعقيم البيوت وتنظيفها بمواد سامة تقتل الحشـــرات , وأحدهم أيضا افتتح مربعا ليليـــا يدعـــى مـــاروكو

.ويوجد في منطقتكم الكثير منه , بالقرب من مركز شايبيسوفي للمبيعات , انك تراهم كالصقور هنـــا في هذه الصورة الفوتوغرافية , وهل تعتقد بأن ذلـــك الذي دهس خصيتي بقدمه يتأسف على ما فعل؟ انـــه الآن مقاول من الدرجة الأولى , أو لـــو سمحـــت لي بالضحك , انه يعمل على إعادة الإنسانية , والعـــدل إلى السجون .

كم كان ساذجا ذلك العقيد حين ظن بأن الخـــوف أقوى الأوراق . وهكذا وكما ترى فـــان رؤســـاء , ومساعدي العقيد يسرحون ويمرحـــون , راكبـــين سيارات المرسيدس , والفورد , والمازدا , والشيطان يعرف أي نوع آخر من الســـيارات , يســـرحون , ويمرحون دون خوف.سوف تضحك إن أبلغتك بـــأن بعضهم تجرأ , و حضر لزيارتي , ليأخذ بعضـــا مـــن السمك .و رحبت مرة بأحدهم , والذي كـــان في

السابق أحدهم . وكان يعرف كيف يمدح نفسه .
نظر أحدنا في عيني الآخر , وكما لو أننا تصافحنا
بحرارة, ولم يجد في عيني صورة دفن الملفات واضحة ,
شربنا . لعبنا بالورق , وتحقق من تصرفاتي الآنية ,
وان كنت ما أزال أنظر إليه نظرة غاضبة تذكره
بالماضي . وعرفت منه بأهم يسبحون بالملايين . وأهم
جميعا في أحوال مادية عالية , وأهم متماسكون ,
ويشد بعضهم إزر البعض . إنني أقول ذلك . وكما
أنه ما يزال بيننا . لقد أصبح كل شيء من الماضي .
لقد ساهموا في تخفيض البطالة , وقاموا بتوظيف
الناس , ولقد قمت أيضا بزيارة معاملهم . وشاهدت
النظافة , والعمل المتقن , والنظام الذي يسود العمل
, وكما أهم يا سيد كليمنتيني أرادوا أن يشعروني بأن
مافات قد مات , وبأننا أولاد اليوم : ابتسامات ,
ذقون ناعمة , ثياب نظيفة , عيون مبتسمة , زوجات

جميلات وأنيقات , كانوا يتسابقون بدعوتي لحفلة عيد الميلاد كل سنة تقريبا , وهل تظن أنني كنت أرفض دعوتهم تلك ؟ إن دعوتهم لي كانت ذات هدف واضح , لقد كانوا يريدونني أن أبقى تحت أنظارهم , ومراقبا بشكل مباشر من عيونهم . لقد حرسوني . لقد قبلت دعوتهم . وكنت سعيدا ! وأتمنى ألا أشرح لك سبب قبولي الدعوة , وكنت أتلقى الهدايا منهم قبل العيد بأسبوع , ونقوم سوية بكل احتفالية بزيارة الكنيسة في منتصف الليل , مثل أتقياء الكاثوليك , وقبل القداس نكون قد أكلنا الملفوف مع اللحم , والسمك . هكذا كان الأمر مع المسؤولين , وفي الآونة الأخيرة أهداني أحدهم المجلدات الكبيرة لتاريخ العالم , انهم يرسلون أولادهم كل عام إلى الغرب ,ولسان حالهم -لنترك الشبيبة تدرس اللغات الأجنبية , وفن الحياة بحرية .

في أحد الأيام سمعت أن أحدهم ، وأظنه ذاك الـــذي كان يملك محلا للتنظيف ، قد مات في حادث ســيارة ، لقد كان عمله في تلك الأثناء، وعلى غير عــادة لا يدر ربحا كبيرا ، وكانت السوق جامدة بعض الشيء ، فأعلن إفلاسه . ويقال بأن كابحات سيارته المعطلــة كانت سببا في الحادثة ، وفي الأسبوع ذاته تعـــرض اثنان من تلك المجموعة لاعتداء بالسكاكين في أحـــد البارات ، تسبب في موتهما . وحدث الأمر في مربــع ماروكو. وبدأت المجموعة بعـــد تلـــك الأحـــداث بالتفكك. وربما كان ذلك المطعون في البار ســـببا في انهيار تلك العروة بين أولئك السفلة . ولم يبق منـــهم هنا على حد علمي سوى مالك البار الليلي مـــاروكو ، وربما كان المسبب الأول في ذلك الذي حدث مـــن الانهيار. أحدهم انتقل إلى كوشيتي(مدينة في شـــرق سلوفاكيا) ،واثنان الى زوريخ (في ألمانيا)، وآخـــر إلى

لوتشنسا(في سلوفاكيا). وآخر الى جنوب أفريقيـــا, حيث ابتاع مكانا رخيصا في المنطقـــة الـــتي بـــدأ البولونيون بمغادرهـــا , اثنـــان آخــــران انتـــهوا في بودابست(المجر) . وبقي هنا أولئك الذين ســـاعدوا في الدفن. انهم يرسلون لي البطاقات البريدية في الأعيـــاد , وبالضبط كما يفعل الصيدلي. كما أنهم يرســـلون لي صـــــورا فوتوغرافيــــة عــــن رحلاتهـــــم. كما أرى من واجبي أن أعترف لك بـــأنني , وبعــــد موت العقيد أصبحت أشعر بنوبات مرضية , لم تكـــن نوبات بالمعنى الكامل . إذ أنني في البداية كنت أشـــعر للحظات فقط بدوار في رأسي . وكنت أفقد تـــوازني ووعيي أيضا . ظننت في البداية أن ذلك يعــــود الى مرض في رقبتي , ومرة وصلت الى حالة تعيسة , كان لا بد من نقلي بسيارة الإسعاف الى المشفى . كــــان حظي جيدا , حيث أن تلك النوبة قـــد جـــاءتني في

حضور رئيس الصيادين المحليين , الذي هو في منتـهى الذكاء , ولكنه فقد في ذلك الوقت صبره , وهدوءه كما أخبرني لاحقا – وكنت مستلقيا هنا على الأرض , وعلى لوح خشبي . بعد ذلك قمت بزيارة العديـد من الأطباء , وفي النهاية أخبروني بأنني مصاب بـداء الصرع , واحتار الأطباء في مرضي .كونه أصابني في هذا السن المتقدم , ولهذا السبب فإنني أحتفظ هنــا بهذا الكلب العظيم من نوع فلتشاك . ريجنت هـذا , ولكنني لا أطيعه أبدا , انه ليس من الكلاب الحارسة التي عادة ما يربيها الناس في تلك المجمعات السكنية. إن الصيدلي فرتياك , أي صديقنا المشترك , والـذي كان السبب تعارفنا بهذه الطريقة الغريبة, خبـير في انتقاء المقالات من المجلات. انـه يمتلـك مواهـب متعددة, واهتماماته متنوعة أيضـا, وهكـذا فانـه اكتشف , أو قرأ في إحدى المجلات الإنكليزية المهتمة

بالشؤون البيطرية أن رجلا يدعى أندرو ادني .. اثبت بأن الكلاب. وبكل بساطة تستطيع أن تتوقع مسـبقا الوقت الذي سوف يصاب صاحبها بنوبة الصـرع . لهذا السبب فإنني أملك هذا الكلب الذي تراه هنـا, لقد كان جروا صغيرا حين أحضرته , وكما تـرى الآن فانه قد أصبح كبيرا . إن هـذا النـوع مـن الكلاب , وان لم تكن مدربة تحدث ضجة كبـيرة قبل أن يصاب صاحبها بنوبـة الصـرع . تصـور الكلاب تستطيع أن تتوقع النوبة الصرعية –كـلاب غير متدربة , تبدأ بالقفز , والعواء المستمر, تحـاول الوصول الى باب الجيران لابلاغهم بالنوبة الصرعيـة التي حدثت لصاحبها.   اليوم بالذات , وقبل موعد الغذاء بدا لي ريجنت غير مرتاح , وعصبي المـزاج , ومنزعجا , وعزوت الأمر لتلك الزيـارة المزعجـة الصباحية , تلك المرأة المجهولة التي أرسلها صديقنـا

الصيدلي . والتي أراد من خلالها إبلاغـــي بتـأجيل الموعد. بعد لحظات تملكني شعور بأنه يحضر شيئا مـلء كونه قد بدأ يتشمم الأشياء من حوله ,و يحدق فيـها بانتباه . انه غالبا ما يتصرف على هذا النحو حـــين يشعر بعدم الأمان .لقد كان الباب مغلقا , ولكنـــه بعد ذلك قام بفتحه , وركض الى الطابق الأرضـــي , وحاول فتح الباب الرئيسي للبناية , وحـــين شــعر بفشله في فتحه . عاد مسرعا إلى الأعلى , وهكـــذا كان يكرر هذا العمل عدة مرات . انه بالفعل يقـــوم بهذا العمل قبل شعوري باقتراب نوبة الصرع . أمـــر غريب .. أليس كذلك . اعذرني على ضحكي غــير المبرر. ولكن يهيأ لي , كأن هذه النوبة هي عبارة عن شبح يصعد الأدراج , ويفتح الباب ,ويدخل البيـــت مثل الإنسان, لقد فكرت كثيرا بهذا الموضوع . وإنني أراه في بعض الأحيان . يبدأ في العواء, وقبل حـدوث

النوبة . أراه محدقا بنظره إلى وجهي مدة طويلة , يقرأ معالمه , وتبدلاته . وعندما يتأكد من انتباهي إليـه , و بأنني آخذه بمحمل الجد , وأنتبه إلى حركاته .وأعتبره إنسانا مهما , يتحرك ببطء نحـــو سماعـــة الهـــاتف , ويصعد الكرسي , ويضع قدمه على جهاز الهـــاتف , شيء غريب إنها طريقته في تنبيهي بقرب نوبة الصرع , انه يقوم باستعراضه هذا أحيانا دون فائدة , حيـث أن النوبة لا تحدث , وفي بعض الأوقات يكون محقـا. ما هذا الذي تملكه روح ذلك الكلب , وأين تعلمه , وكيف بإمكانه التعرف على بدء نوبة الصرع تلـك ؟ اشــرح لي بربـك يـــا ســـيد كليمنتيــــني؟ إنني لم انتهي بعد من حديثي عن تصرفاته الغريبـــة . أريد أن أوضح لك أمرا خاصا,وبما أننا نتحدث عـن هذا الأمر طويلا , وأرجو المعذرة , انظر الى هـــذا القلم الخشبي المعضوض . إن أول مـــا يقــوم بــه

ريجنت حين أقع في نوبة الصرع . هو أخذه هذا القلم . ووضعه بين أسناني لحماية لساني . لقد دربته علـــى هذه الطريقة في الإسعاف , وإنني فخور بذلك , ولـو أنني تمددت الآن على الأرض , لرأيته كيف يلتقـــط القلـــم بســـرعة . ولكـــن لنـــترك هـــذا الأمـــر. الآن , وحين أفكر بهؤلاء القوم _وهذا أمر لا يمكنني التخلص منه- لا يسعني إلا أن أوافق على ما قالـــه العقيد , وأعطيه كل الحق في قوله. إن ذلك المقـــاول الذي طعنوه في البار , كان نقطة هامـــة في الحلقـــة .كان نقطة حساسة في هذه الأعمال الشريرة. وكـــان نقطة التقاء لبقية الأعضاء , وحلقة الربط بينـــهم , وتسبب موته بكسر الزجاج الذي لايكسر.

سألني السيد كليمنتيني عن سبب حديثي المتكرر عن ذلك المطعون؟ لقد فهمت بأنني أشعر الآن بالخوف .

وأنت ياسيد كليمنتيني بدأت تشعر بالخوف أيضا من خوفي.

إنني لم أنته بعد من حديثي عن العقيد , وعن تلـــك الزمرة, ولم أنته أيضا من الحديث عـــن معلوماتـــه , ورؤيته للشر. لقد فكرت في استنتاجات العقيـــد في مدينة البندقية , حين تمكنت للمرة الأولى في حيـــاتي مــــن الســـــــفر خــــــارج الحــــــدود.

في إحدى الأمسيات أقنعني رئيس الوحدة التعاونيـــة الزراعية –الآن لم يعد رئيسا– بأن أســـافر معـــه الى بادوفا , والبندقية . يقال :كما علمت بأنك تتقـــن الألمانية, ويمكنك مساعدتي . كان ريجنـــت العـــثرة الوحيدة التي كانت تقف عائقا أمـــام ســـفري , وكيف لي أن أتركه . ليست هناك مشـــكلة قـــال الرئيس , لأن ريجنت ســـوف يشـــعر بالســـعادة في مترلنا.

الأيام الثلاثة الأولى قضيناها في بادوفـــا . وحيـــث انقض من كان معنا من السياح على المتاجر , وأنـــا بدوري كنت أنظر في الفترينات المليئـــة بالأشـــياء الجميلة , واقتنعت في حينها أكثر من أي وقت مضى , بأن الإنسان ما هو إلا عبارة عن حاجة أيضا . ربمـا لن تصدقني إن قلت لك بأنني شـــعرت في البندقيـــة بأنني سجين من جديد . سجين أخلي سبيله قبل عـدة أيام , وراودني الشعور ذاته حين قالوا لي : يمكنـــك العمل في مكسر الحجارة بعد خروجي من الســجن . أدهشتني أصوات المراكب ,جمال البيوت, والقصور, ولم أكن أشعر بحضور فالديتس كما شعرت بـــه في البندقية , وأكثر ما كان يذكرني بالســجن كـــانت رائحة العفن, المنتشرة في كل مكان , والرائحة النتنة الكثيفة للماء الوسخ في الممرات المائيـــة , ورائحـــة الجرذان , وبدأت أخاف من حريتي الحقيقيـــة الـــتي

أعيشها . ربما لن تصدقني ولكن هـــذا الإحســـاس بالعودة الى سجن فالديتس بدأ يراودني . وأنني عـــائد إليه لا محالة . من البندقية الى فالديتس. وحتى هـــذا اليـــوم لا أفــــهم مـــــا جـــــرى لي.

كنا نقيم في إحدى الجزر خارج البندقية, في فنـــدق صغير , وكنا في الواقع نذهب للنوم هناك فقـــط , وكلمة شرف أقولها لك بأنني لا أذكر اســـم تلـــك الجزيرة , ولا أتذكر حتى رقم المواصــلات إليـــها . وأخيرا ليس من المـــهم تذكـــر اســـم الجزيـــرة . في الصباح إلى الأسواق , والمخازن الجميلة , وبعـــد الظهيرة إلى الشاطئ, وعند اقتراب المســـاء كنـــت أذهب الى البحر وحيدا , أراقب الأمواج .

هل تعلم بأنني , ومنذ تلك الأيام , أيام فـــالديتس , استيقظ في الثالثة صباحا , لقد مضت عشرة سنوات على خروجي منه , ومـــازلت أســـتيقظ في تلـــك

الساعة, في البداية كدت أفقد صوابي , وخاصة حين كنت في السجن , ولم أكن أعرف في حينها أن الوقت عشرة دقائق قبل الثالثة, كنت أستيقظ, وكأن أحدهم قد صب على جسمي ماء باردا . كنت أشعر بألم في عيوني حين أفتحها . وحتى الآن ,وبعد الثالثة صباحا لا أستطيع النوم. كنت أشعر في السجن خلال اليوم بأنني متعب ,وكنت أتعثر في خطواتي من الضرب بالأقدام . وربما لن تصدقني بأن الاستيقاظ الصباحي ساعدني في تحمل السجن , وهل تعلم السبب؟ السبب أنني كنت أتحرك, وأسبح طوال اليوم في الأحلام , كانت الحقيقة مكبوتة في أعماقي ,ولا أسمح لها بأن تخرج على السطح . إنها كانت موجودة إلا أنها كانت شنيعة . حتما انك تدرك ذلك الشعور , وهو شبيه بذلك الشعور الذي يبقى في رأسك لمدة طويلة بعد سفرك بقطار سريع , و بعد

وصولك إلى المحطة . أنه نوع من الدوار . وهو ذلـك الشعور الذي ينتابك , وأنت منهك حتى المـــوت , وفجأة تنتبه لما حولك , وتشعر بأنك تشاهد فلمـــا سريعا لايهمك بالأصل , وليس له أية علاقـــة بـــك ,وبأحاسيسك , أو كأنك تنظر في صور فوتوغرافيـــة في البوم لإنسان غريب لا علاقة لك به من قريـــب أو بعيد . هكذا كان شعوري في فالديتس , وتجدد لـدي هذا الشعور في البندقية , لم يكن هناك ما يضفـــي السعادة على روحي، وإحساسي وقلبي , لا شــيء يدهشني , وليس هناك ما يشدني

كنت في السجن , ولسنوات طويلة أتمنى أن أسبح في نوم عميق , وطويل , ولكن الساعة الثالثة صباحـــا كانت دائما توقظني ,كالمنبه الذي لا يرحم , والـذي كنت قد حدثتك عنه سابقا.ربما كانت تخدمني قلـــة نومي كفلتر حماية , ومن النوع الذي لم يكن يســمح

لي بإحساس كامل بسجني . وربما لو كنت أنام مـــل جفوني لكنت أصبت بالجنون لما عشته في أوقـــات النهار , وما شاهدته في السجن .حين خرجت مـــن السجن بسبب اصابتي . وحين كان بإمكاني النـــوم حسب مشيئتي , اكتشفت بأنني في مطلع الفجـــر, بعشر دقائق قبل الثالثة كنت أستيقظ أيضا . ولكـــن كانت هناك إمكانية أخــــرى,إمكانيـــة الاســـتلقاء بالشورت ,ومتابعة النوم حتى الثالثة صباحا. وحتى في البندقية لم أتمن شيئا كما تمنيت أن اســــتلقي علـــى السرير قبل السابعة مساء . صدقني , إن النـــاس لا يعرفون ماذا يعني السرير , ولا يعرفون أيضا ضرورة احترام الغطاء النظيف . لا أدري السبب.ولكنـــني في البندقية تذكرت أحد زملائي من نـــزلاء الســـجن , الذي كان يجبر نفسه على الحلم , ومواضيعه أيضـــا . كان يحلم بالشيء الذي يخطط له مسبقا ,وكـــانت

أحب الأحلام إلى نفسه تلك التي يرى فيها نفسه منهمكا في أعمال حديقة مترله, وذلك بالرغم من أنه لا يملك حديقة,وحلمه المفضل الآخر كان ركوب البحر,والسفن,وكان هذا الحلم المفضل لديه مقتبسا من أحد الأفلام التي شاهدها في السابق .إن السجن الجيد يحدد لك برنامجا لسنوات طويلة تمتد إلى ما بعد خروجك منه . انك خارجه ولكنك تملك إلى وقت طويل شيئا , ساعة موقتة تسمع ضرباتها , وتتعامل معها طويلا .

في البندقية كنت خائفا من أن أصاب بنوبة صرع مفاجئ , وحتى تلك النوبة لها قوانينها , تصور فيما عدا مرة أو مرتين لم أصب بحياتي بنوبة صرع خارج بلدي .غالبا ما كنت أتذكر ريجنت .أتعلم , كنت أتفحص الكاتالوكات , والصور التي اشتريتها في اليوم الثاني من إقامتي في بادوفا , وبدأت أفكر في

ضرورة زيارتي لبعض المتاحف ,خاصة,وأنني أصبحت حرا ,وأتمتع بحريتي بعد تلك السنين الطويلـــة مـــن السجن البغيض ,ولكن ربما لن تصدقني إن قلت لـك ,لقد حولتني البندقية لإنسان أعمـــى,وأحسســـت هناك بأنني أنظرفي ضوء قوي يشبه الضـــوء الـــذي كانت الشرطة تسلطه على وجهي عند بدء مشـــوار التعذيب .

ماذا ؟ ماذا قلت؟ تقول أنني مصاب بتناذر الغواصـة؟ أعرف جيدا ما هو تناذر الغواصة .لقد صبرت طويلا , وأنت تجلس في الغواصة , الغواصة التي لم يعد أحـد يدخل إليها.

ماذا قلت ؟ , تقول بأنك تريد معرفة موضوع والدك فقط ؟

إن كل ما حدثتك عنه هو بالذات قضية والـــدك , وقضية والدي , وموضوع آباء العديد مـــن النـــاس

الذين ظلموا . وانتهكت حريتهم , ولا تظن بـــأن وضعك سيكون أفضل من وضعي لكونك تصغـــرني بجيل كامل . آه كم أبدو أحمقا ! كان علي أن أسمـــع كلام الصيدلي , وكلام تلك المرأة التي حضـــرت إلى بيتي من أجلك! لابد . وأنها كانت تعـــرف عنـــك الكثير , وأكثر بكثير مما يعرفه عنك السيد فرتيـــاك بالذات !كم هو مؤسف كونكما لم تلتقيا . وكيـــف حكمتم عليها أيها الطبيب ؟

ربما لا تتوقع , ولا تعرف أيضا , بأنني أغلقت مـــن وراءك باب الغواصة , ومنذ الآن ستبقى معـــي , والى الأبد سجينا فيها .

تمـــــت

في المكتبات الآن

سلسلة الأدب السلوفاكي المترجم للعربية

للدكتور غياث الموصلي

١.مالذة السلطة — لاديسلاف مناتشكو

٢.الأمل لا يموت — ألكسندر دوبتشك

٣.عقاب الجريمة — يان يوهانيدس

٤.الحمية ضد السرطان

تحت الطبع لعام ٢٠٠٢

مذبحة في بيروت للشاعر السلوفاكي ميلان ريختر